الفصل الثاني

منهجه في التفسير بالمأثور

- منهجه في تفسير القرآن بالقرآن وبالسنة وبأقوال الصحابة والتابعين
- منهجه في القراءات والاستعانة بها في التفسير
- منهجه في أسباب النزول
- موقفه من الإسرائيليات
- آراؤه في علوم القرآن

obeikandl.com

obeikandl.com

المبحث الأول

منهجه في التفسير بالمأثور

يعد تفسير الرسعني من بين كتب التفسير التي اعتنت بالتفسير بالمأثور واهتمّت به ، وقد أوضح هذا مؤلفه ؛ بل حث عليه قائلاً : « وهكذا يجب على كل عالم أن يتورع عن القول في كتاب الله بغير علم وبصيرة ، وأن لا يُقْدم على تفسير شيء منه إلا بنقل فيما طريقه النقل ، أو استنباط يشهد العلم بصحته على ما أوضحته في مقدمة الكتاب »[1].

وقبل الشروع في بيان منهج الرسعني في التفسير بالمأثور يجدر أن نقف قليلاً عند مدلول ومعاني بعض المصطلحات التي يكثر تداولها في هذا الموضوع كالتفسير ، والتأويل ، والمأثور ، والمراد بها لغة واصطلاحاً .

أولاً : التفسير لغة واصطلاحاً

١ - لغة

مشتق من الفسر ، وهو الإبانة وكشف المغطّى ، ولهذا المعنى أشارت الآية الكريمة ﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ (الفرقان:٣٣)، يعني : بياناً وكشفاً[2].

---

(١) رموز الكنوز ٤٩٦/٨ ، ولقد فُقدت مقدمة الكتاب ، وبفقدها لم أستطع المقارنة بين ما ألزم الرسعني به نفسه في طريقته ومنهجه في التفسير ، وما وجدته من خلال القراءة في كتابه .

(٢) لسان العرب لابن منظور ١٨٠/١١ (فسر) ، القاموس المحيط للفيروزآبادي ٤٥٦ ، (فسر) ، رموز الكنوز ٣٢٣/٥ .

٢- اصطلاحاً

هو «علم يعرف به فهم كتاب الله المنزّل على نبيه محمد ﷺ ، وبيان معانيه واستخراج أحكامه وحكمه»[١]، وقيل : «هو علم نزول الآية وسورتها ، وأقاصيصها ، والإشارات النازلة فيها ، ثم ترتيب مكيها ومدنيها ، ومحكمها ومتشابهها ومجملها ومفسرها»[٢] .

ثانياً : التأويل لغة واصطلاحاً

١- لغة

مصدر من أولّ يؤول تأويلاً ، وهو مأخوذ من آل إليه أوْلاً ، ومآلاً ، أي : رجع وارتدّ ، أو تأوله بمعنى : دبرّه وقدّره وفسرّه ، وقيل : من الإيالة[٣] ، وهي السياسة فكان المؤول يسوس الكلام ويضعه في موضعه ، والمعنى الأول والثاني هما اللذان تدور عليهما معنى الكلمة لغة وتكاد تنحصر بينهما ، والناظر لكتاب الله تعالى يجد مثل هذه المعاني ، ففي قوله تعالى ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ﴾ (آل عمران:٧)، فهنا (تأويله) بمعنى التفسير والتعيين ، وقوله تعالى ﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ﴾ (يونس:٣٩) ، بمعنى وقوع المخبر به ، وقوله تعالى ﴿ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ (النساء:٥٩) ، وهما بمعنى العاقبة والمصير .

---

(١) البرهان في علوم القرآن ، بدر الدين محمد الزركشي ١٣/١ (تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعرفة ، بيروت ، ط٢ ، ١٣٩١هـ ، ١٩٧٢م) .

(٢) البرهان للزركشي ١٤٨/٢ ، الإتقان في علوم القرآن ، جلال الدين عبد الرحمن السيوطى ٤٠٥/٢ (تحقيق : أحمد علي ، دار الحديث ، القاهرة ، ١٤٢٧ هـ ، ٢٠٠٦م) .

(٣) لسان العرب لابن منظور ١٩٣/١ ، القاموس المحيط للفيروز آبادي ٩٦٣ (آل).

ويتبين مما سبق أن كلمة التأويل عند السلف لها معنيان أحدهما تفسير الكلام وبيان معناه وهذا ما كان يعنيه الطبري بقوله في التفسير : القول في تأويله قوله تعالى كذا وكذا . . . ، والمعنى الثاني الرجوع والمآل كما في الآيات السابقة .

٢ - اصطلاحاً

التأويل في الاصطلاح له معنيان ، وهما تفسير الكلام وبيان معناه سواء وافق ظاهره أو خالفه ، أو المراد به الرجوع والمآل ، وأما عند الخلف من المتكلمة والمتصوفة وغيرهم فالمراد به صرف الآية إلى ما تحتمله من المعاني[١] أو صرف اللفظ عن المعنى الراجح إلى المعنى المرجوح لدليل يقترن به ، والمتأول على هذا مطالب بأمرين : أحدهما : أن يبين احتمال اللفظ للمعنى الذي حمله عليه وادعى أنه المراد .

الثاني : أن يبين الدليل الذى أوجب صرف اللفظ عن معناه الراجح إلى معناه المرجوح ، وإلا كان تأويلاً فاسداً ، أو تلاعباً بالنصوص[٢].

والخلاصة أن التأويل هو تفسير الكلام وبيان معناه سواء وافق ظاهره أو خالفه ، وهذا هو الذى عناه مجاهد ـ رحمه الله ـ أن العلماء يعلمون تأويله ، والطبري يقول في تفسيره : القول في تأويل قوله كذا وكذا ، والمعنى الآخر هو نفس المراد بالكلام وبينهما بَون فضلاً عن المعنى الثالث في عُرف المتأخرين الذي هو صرف اللفظ عن المعنى الراجح إلى المعنى المرجوح لدليل يقترن به[٣].

وقد ذُكرت أقوال عديدة في الفَرْق بين التفسير والتأويل أهمها أنه لا فرق بينهما ، أو أن التفسير يختص باللفظ والتأويل للمعنى ، وقيل : إن التفسير هو

---

(١) البرهان للزركشي ٢/١٥٠ ، الإكليل في المتشابه والتأويل ، تقي الدين بن تيمية : ٢٧ (تحقيق محمد الشيمي شحاتة ، دار الإيمان ، الإسكندرية ، بدون سنة طبع) .

(٢) الإكليل في المتشابه والتأويل لابن تيمية ٢٧ ، التفسير والمفسرون ، دكتور محمد حسين الذهبي ١/٢١ (دار الحديث ، القاهرة ، ١٤٢٦ هـ ، ٢٠٠٥م) .

(٣) الإكليل فى المتشابه والتأويل لابن تيمية ٢٧ ، ٢٨ بتصرف .

الشرح ، والتأويل هو حمل الكلام على معنى غير المعنى الذى يقتضيه الظاهر بموجب اقتضى أن يحمل على ذلك ويخرج على ظاهره[1] وغيرها من الأقوال .

وقد بيّن الرسعني منهجه في هذه المسألة فقال : «وقاعدة مذهب إمامنا في هذا الباب اتباع السلف الصالح ، فما تأولوه تأولناه وما سكتوا عنه سكتنا عنه ، مفوضين علمه إلى قائله ، منزّهين الله عما لا يليق بجلاله» [2]، وهذا الرأي نابع من منهجه الأثري الذى صرح به وسار عليه في تفسيره ، والرسعني يستخدم أحياناً كلمة التأويل في تفسيره بمعنى التفسير[3].

ثالثاً : التفسير بالمأثور

المراد بالتفسير بالمأثور هو «الذى يقوم على قاعدة الرواية والأثر ، أو ما مستنده النقل فقط»[4] أو «ورود تفسيره بالنقل عمن يعتبر تفسيره كتفسير النبي ﷺ ، أو عن الصحابة ، أو عن رؤوس التابعين»[5]، وينبغي الإشارة هنا إلى قضية مهمة وهي أن التفسير بالمأثور لابد فيه من النظر إلى صحة سنده فليس كل ما يقال أنه مأثور يؤخذ به ، فما توافرت الأدلة على صحته وقبوله وجب الأخذ به ، وما لم يصح بسبب من الأسباب فيجب ردّه[6] .

---

(١) البرهان للزركشي ١٤٩/٢، ١٥٠ ، المفردات في غريب القرآن ، حسين بن محمد المعروف بالراغب الأصبهاني ٣٩/١ ، ٤٩١/٢ (الرياض ، ط١ ، ١٤١٨ هـ ، ١٩٩٧م) ، الإتقان للسيوطي ٤٤٩/٢ ، التفسير والمفسرون ، دكتور محمد حسين الذهبي ٢٢/١ ، ٢٣ .

(٢) رموز الكنوز ٢٤١/٨ .

(٣) المصدر السابق ٥٨٩/١ وغيرها .

(٤) مقدمة في أصول التفسير : أحمد بن تيمية : ٤١ (تحقيق : أيمن عارف ، صبحي رمضان ، مكتبة السنة ، القاهرة ، ط١ ، ١٤٢٣هـ) .

(٥) البرهان للزركشي ١٧٢/٢ ، مناهل العرفان ، محمد عبد العظيم الزرقاني ١٠/٢ (مكتبة نزار مصطفى الباز ، الرياض ، ط١ ، ١٤١٧ هـ ، ١٩٩٦م) ، التفسير والمفسرون ، دكتور محمد الذهبي ١٣٧/١ .

(٦) مناهل العرفان للزرقاني ٢١/٢ .

وتعود أسباب الضعف في رواية التفسير بالمأثور لثلاثة عوامل هي كثرة الوضع ، ودخول الإسرائيليات فيه ، وحذف الأسانيد[1].

ونظراً لهذا الاختلاط الذي طرأ على التفسير بالمأثور ، فإن علماء الحديث في أواخر القرن الأول لم يزالوا يتابعون هذه الأحاديث ببيان الصحيح من السقيم ، والتنبيه على الراوي الموثوق به والراوي المقدوح فيه ، فصارت تلك الأحاديث الرائجة بطريقة النقل الشفهي متبعة بتعاليق نقدية تتصل بها ، هي التي علق عليها رجال النقد من أئمة الحديث[2].

وقلما نجد كتاباً في التفسير بالمأثور ـ بين أيدينا اليوم ـ خالياً من التفسير بالنظر ، وإذا نظرنا إلى التفسير بالمأثور من جانب آخر نظرة موضوعية فسنجد أن الكثير من تفاسير الصحابة والتابعين وتابعي التابعين هي من قبيل التفسير بالرأي وهي موقوفة على قائليها ليس لها حكم الرفع إلا في حالات قليلة مثل أسباب النزول الصريحة ، والدليل على ذلك هو اختلاف أقوال الصحابة فيما بينهم وإن كان هذا الخلاف من قبيل التنوع لا التضاد ، وهذا الخلاف يتسع إذا تجاوزنا طبقة الصحابة إلى طبقة التابعين وهكذا[3].

وتبقى الحاجة إلى تجديد التفسير كلما احتاج الناس لذلك ؛ لأن القرآن الكريم رسالة لكل الأجيال على مختلف الزمان والمكان ، وهذا ينطلق من المفهوم العام لتجديد الأمة لدينها[4].

---

(١) التفسير والمفسرون للذهبي ١/١٤١ .

(٢) التفسير ورجاله ، محمد الفاضل بن عاشور٣٠ بتصرف (دار السلام ، القاهرة ، ط١ ، ١٤٢٩هـ ، ٢٠٠٨م) .

(٣) ابن جزي للزبيري ١/٣٥٢ ، ٣٥٣ بتصرف .

(٤) أشار النبي ﷺ إلى هذا المعنى ، كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : (إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها) ، أخرجه أبو داود في كتاب الملاحم ، باب ما يذكر في قرن المائة برقم : ٤٢٩١ ، والحاكم في كتاب الفتن والملاحم ٤/٥٢٢ ، وسكت عنه ، والطبراني في الأوسط ٦/٣٢٣ ، ٣٢٤ برقم : ٦٥٢٧ ، والحديث صحيح ، انظر : سلسلة الأحاديث الصحيحة للشيخ الألباني ٢/١٥٠، ١٥١ .

وقد أدلى الرسعني ـ رحمه الله ـ بدلوه في هذا الجانب فقال : «التفسير الصحيح هو المدلول عليه بالأخبار والآثار» [1].

وقال في موضع آخر : ـ سبق ذكره ـ «وهكذا يجب على كل عالم أن يتورع عن القول في كتاب الله بغير علم وبصيرة ، وأن لا يُقْدم على تفسير شيء منه إلا بنقل فيما طريقه النقل أو استنباط يشهد العلم بصحته» [2]، وهو بهذا يُقدم التفسير بالمأثور ، كما أنه لا يمانع من الاستنباط والاجتهاد في التفسير على أن تتوفر أدواته ولوازمه ليشهد العلم بصحته ، وهذا ما سار عليه الرسعني في معظم تفسيره حيث جمع بين التفسير بالمأثور والتفسير بالرأي حسبما تقتضيه قواعد اللغة والنحو وسائر العلوم الأخرى ، وإن كان جانب المأثور هو الغالب في معظم التفسير ، وهذا ما يدركه القارئ للتفسير ، حيث يجد التفسير بالمأثور مقروناً بالتفسير بالرأي وهو التفسير المحمود الذي يقوم على قواعده المعروفة .

أما قول الرسعني : «استنباط يشهد العلم بصحته» فبمفهوم المخالفة يتضح رأيه أن التفسير الذي لا يشهد العلم بصحته ، ولا يستند إلى أقوال أهل العلم في التفسير ، ولا تتوفر أدواته فهو تفسير غير مقبول ويدخل في مفهوم التفسير بالرأي المذموم ، وسيأتي الحديث مفصلاً عن التفسير بالرأي لاحقاً .

أولاً : تفسير القرآن بالقرآن

إن أصح الطرق أن يفسر القرآن بالقرآن ، فما أُجمل في مكان فإنه قد فُسِّر في موضع آخر ، وما اختصر في مكان فقد بسط في موضع آخر [3] والعام بعد التأمل تجده مخصصاً بآية أخرى ، وكذلك يكون المطلق مقيداً في موضع آخر ، وإلى هذه المعاني أشار الرسعني في تفسيره فقال : «فإن كتاب الله

---

(١) رموز الكنوز ٤٥٣/٤ .

(٢) المصدر السابق ٤٩٦/٨ .

(٣) مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية ٧٨ ، الإتقان للسيوطي ٤٥٥/٢ .

تعالى يُصدِّق بعضه بعضاً»[1]، وهذا ما سار عليه في تفسيره حيث كان يعمل بكل ما أُوتي من فهم ؛ ليوفق بين الآيات عندما تحتاج للتوفيق ، أو يجمع بين الآيات في موضع واحد كما سيتضح من خلال النقاط الآتية :

١- يستدل على معاني الكلمات من القرآن ويفسرها بآية أخرى كما في الأمثلة الآتية :

ففي قوله تعالى ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ﴾ (آل عمران:٣٧) ، قال الرسعني : «قال أبو عبيدة : المحراب سيد المجالس ومقدمها وأشرفها ، وكذلك هو من المسجد ، وقال غيره : يقال للمسجد محراب ، ومنه قوله تعالى ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ ﴾ (سبأ:١٣)، أي : مساجد»[2].

وفي قوله تعالى ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ﴾ (آل عمران:١٧٨)، قال الرسعني : «ومعنى ﴿ نُمْلِى لَهُمْ ﴾ نطيل لهم في العمر ، ومثله قوله تعالى ﴿ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴾ (مريم:٤٦)»[3].

٢- يستعين أحياناً بالقرآن لتفسير المعاني وإيضاح مدلولاتها ، كما في الأمثلة الآتية :

ففي قوله تعالى ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾ (الأنفال:٩) ، قال الرسعني : «يعني يتبع بعضهم بعضاً ، أو أنهم جاءوا بعد المؤمنين ، يقال ردفه وأردفه ، إذا جاء بعده ، قال تعالى ﴿ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ (النمل:٧٢) أي : ردفكم»[4].

---

(١) رموز الكنوز ٥٣/٧ .

(٢) المصدر السابق ١٦٤/١، ١٦٥ .

(٣) المصدر السابق ٣٧٤/١ .

(٤) المصدر السابق ٣٧٦/٢ ، وانظر أيضاً ٤١٤/١ ، كلمة (أقسط) .

٣- يعتمد على الآيات القرآنية في توضيح المعاني النحوية ، أو معاني الحروف ، كما في الأمثلة الآتية :

ففي قوله تعالى ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الإسراء:٨٢) ، قال الرسعني : « مِن لبيان الجنس ، كقوله ﴿ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴾ (الحج:٣٠) »[١] .

وفي قوله تعالى ﴿ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾ (الصافات:١٤٧) ، قال : « واختلفوا في قوله ﴿ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾ فقيل : أو بمعنى (بل) كقوله ﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴾ (النجم:٩) ، وقيل : أو بمعنى الواو كقوله ﴿ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴾ (المرسلات:٦) »[٢] .

٤- محاولة التوفيق بين الآيات التي ظاهرها التعارض ، كما في الأمثلة الآتية :

ففي قوله تعالى ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾ (المؤمنون:١٠١) ، قال : « كيف الجمع بين هذه الآية وبين قوله ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴾ (الصافات:٢٧) ، قلت : يوم القيامة مقداره خمسون ألف سنة ، ففيه أزمنة مختلفة وأوقات متغايرة يتساءلون في وقت ، ويشغلهم ما خامرهم من الأهوال والشدائد عن السؤال في وقت »[٣] .

وفي قوله تعالى ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴾ (الأعراف:١٠٩)، قال : « القصة واحدة ، فكيف عزا هذا القول ها هنا إلى الملأ ، وعزاه في الشعراء إلى فرعون فقال تعالى ﴿ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴾ (الشعراء:٣٤)، قلت : إما أن يكون القول صدر منه ومنهم فحكاه سبحانه وتعالى في أحد الموضعين عنه وفي الآخر عنهم ، وإما أن يكون ابتدأ القول من فرعون ، فتلقاه الملأ فقالوه لمن دونهم في الرتبة على قبيل التبليغ »[٤] .

---

(١) رموز الكنوز ٢٢٢/٤ .
(٢) المصدر السابق ٤٣١/٦-٤٣٢ .
(٣) المصدر السابق ١٦١/٥ .
(٤) المصدر السابق ٢١٦/٢ .

٥- ردّ الفروع إلى أصولها والمتشابه إلى المحكم وفق رؤية واضحة وعقيدة صحيحة تجعل الرسعني لا تشتبه عليه الآيات ، ولا تختلط عليه المفاهيم والأحكام ، كما في المثال الآتي :

ففي قوله تعالى ﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾ (النساء:٧٩) ، قال الرسعني : « فإن قيل : ظاهر هذا يناقض قوله ﴿ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ (النساء:٧٨) ، قلت : لا مناقضة لأوجه : **أحدها** : أن المعنى كما ذكر ابن عباس وقتادة ، أنه أضافه إليه إضافة الشيء إلى سببه ، **والثاني** : أن التقدير أفمن نفسك؟ وقد يحذف حرف الاستفهام كثيراً ، ومثله ﴿ فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ ﴾ (الأنبياء:٨٧) ، ﴿ أَفَإِين مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴾ (الأنبياء:٣٤) ، ﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ ﴾ (الشعراء:٢٢) ، تقديره أفظن ؟ أفهم ، أو تلك نعمة؟ فعلى هذا يكون الاستفهام بمعنى الإنكار عليهم حيث نسبوا الفعل إلى غير فاعله ، فإنه لا يقع في الكون أمر من رخص وغلاء ، ونعمة وبلاء إلا بقضاء الله وقدره ، **والثالث** : أن هذا من تمام ما حكاه الله عنهم منكراً عليهم القول والتقدير ﴿ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴾ (النساء:٧٨) ، يقولون ﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾ (النساء:٧٩) ، والمضمر المقدر كثير في القرآن وكلام العرب ، ومنه قوله تعالى ﴿ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ ﴾ (البقرة:١٨٥) ، أي : فأفطر فعدة ، وقوله ﴿ أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ ﴾ (البقرة:١٩٦) ، أي : فحلق ففدية ، وقوله ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (النور:٢٠)، أي : لولا فضل الله عليكم لعذبكم »[1].

٦- إن القرآن يُصدق بعضه بعضاً ، ويفسر بعضه بعضاً ، وهذا ما عمله الرسعني في تفسيره بالجمع بين هذه الآيات حيث فسر الآية بنظيرها من القرآن الكريم ، كما في الأمثلة الآتية .

---

(١) رموز الكنوز ١/٥٦٥ ، ٥٦٦ بتصرف ، وانظر ٧/٥٦٤ ، ٥٦٥ .

ففي قوله تعالى ﴿ وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ (الأنبياء:٩١) ، قال : «أي أمرنا جبريل فنفخ في درعها فأجرينا فيها روح عيسى كما تجري الريح بالنفخ ، وإنما قال في موضع آخر ﴿ فَنَفَخۡنَا فِيهِ ﴾ (التحريم:١٢) ، حملاً على الجيب ، وإضافة الروح إليه سبحانه إضافة تشريف ، وقيل : المراد بالروح : جبريل ، كما قال تعالى ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ﴾ (الشعراء:١٩٣) ؛ لأن النفخ جاء من جهته»[(١)] .

وفي قوله تعالى ﴿ وَيَوۡمَ نُسَيِّرُ ٱلۡجِبَالَ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ بَارِزَةٗ وَحَشَرۡنَٰهُمۡ فَلَمۡ نُغَادِرۡ مِنۡهُمۡ أَحَدٗا ﴾ (الكهف:٤٧) ، قال الرسعني : «قال ابن عباس : تسيّر عن وجه الأرض كما يسيّر السحاب في الدنيا ، ثم تكسر فتكون في الأرض كما خرجت منها ، ويدل عليه قوله تعالى ﴿ وَبُسَّتِ ٱلۡجِبَالُ بَسّٗا ۝ فَكَانَتۡ هَبَآءٗ مُّنۢبَثّٗا ﴾ (الواقعة:٥،٦)»[(٢)] .

وفي قوله تعالى ﴿ وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾ (الزخرف:٤) ، قال الرسعني : «أي في أصله وهو اللوح المحفوظ ، كما قال تعالى ﴿ بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ ۝ فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظٖ ﴾ (البروج:٢١،٢٢)»[(٣)] .

وكذلك في قوله تعالى ﴿ يُعۡرَفُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ بِسِيمَٰهُمۡ فَيُؤۡخَذُ بِٱلنَّوَٰصِي وَٱلۡأَقۡدَامِ ﴾ (الرحمن:٤١) ، قال : «قوله تعالى ﴿ يُعۡرَفُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ بِسِيمَٰهُمۡ ﴾ وهو سواد الوجوه ، وزرقة العيون ، بدليل قوله تعالى ﴿ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞ ﴾ (آل عمران:١٠٦)، وقوله تعالى ﴿ وَنَحۡشُرُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ يَوۡمَئِذٖ زُرۡقٗا ﴾ (طه:١٠٢)»[(٤)].

٧- يعتمد مبدأ أن ما أُجمل في موضع من القرآن يفصل في موضع آخر منه ويستدل به كثيراً ، كما في الأمثلة الآتية :

ففي قوله تعالى ﴿ وَنُوحًا إِذۡ نَادَىٰ مِن قَبۡلُ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ (الأنبياء:٧٦) ، قال : «المعنى واذكر نوحاً ، ﴿ إِذۡ

---

(١) رموز الكنوز ٦٦٤/٤ .
(٢) المصدر السابق ٢٩٩/٤ .
(٣) المصدر السابق ٩٨/٧ .
(٤) المصدر السابق ٥٦٥/٧ .

نَادَىٰ مِن قَبْلُ ﴾ أي : دعا ربه من قبل إبراهيم ولوط ، وهو قوله تعالى ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴾ (نوح:٢٦) »[١].

وفي قوله تعالى ﴿ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴾ (طه:١٢٢) ، قال : « أي وفقه لحفظ التوبة ، وقيل : هداه إلى التوبة ، فقال : ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ (الأعراف:٢٣) »[٢].

وكذلك في قوله تعالى ﴿ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ ۖ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (الجاثية:١٠) ، قال الرسعني :« ﴿ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ ﴾ من الأموال وزينة الدنيا ﴿ شَيْـًٔا ﴾ أي : لا ينفع ولا يدفع عنهم شيئاً من العذاب ، كقوله تعالى ﴿ لَّن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ﴾ (المجادلة:١٧) »[٣].

٨- يتتبع الرسعني مواضع التكرار لآيات أو كلمات القرآن الكريم ويفسر بعضها ببعض ويوضحه ، كما في الأمثلة الآتية :

ففي قوله تعالى ﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ﴾ (الأعراف:١٥٠) قال : « الأسيف الشديد الغضب ، ومنه قوله تعالى ﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾ (الزخرف:٥٥) ، وقيل الحزين »[٤].

وفي قوله تعالى ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ﴾ (غافر:١٨) ، قال : « وهو يوم القيامة سمي بذلك ، لأزوفه وهو قربه ، ومنه قوله تعالى ﴿ أَزِفَتِ ٱلْـَٔازِفَةُ ﴾ (النجم:٥٧) »[٥].

---

(١) رموز الكنوز ٦٤٢/٤ .
(٢) المصدر السابق ٥٧٦/٤ .
(٣) المصدر السابق ١٨/٧ ، وانظر على سبيل المثال أيضاً ١٩٤/٤ ، ٣٩٧/٥ ، ٤٤٠/٦ وغيرها .
(٤) المصدر السابق ٢٦٤/٢ ، ٢٦٥ .
(٥) المصدر السابق ٦٠٠/٦ ، وانظر أيضاً ٥٦٤/١ ، ٢٦٤/٢ ، ٤٢١/٥ .

٩- تفسيره آيات القرآن الكريم بمقتضى أو ملاحظة السياق الذي وردت فيه الآية أو الآيات ، كما في الأمثلة الآتية :

ففي قوله تعالى ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ (الرعد:٣١)، قال : « واختلف في جواب (لو) فقال الأكثرون : هو مضمر تقديره لكان هذا القرآن لعظمته وكرامته ، أو يكون المعنى : لو أن قرآناً سُيّرت به الجبال أو قُطعت به الأرض حتى تتصدع وتتنزل قطعاً لكان هذا القرآن لما يشتمل عليه من الإنذار والتهديد والتخويف »[١] .

وفي قوله تعالى ﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ﴾ (الأعراف:١٥٠) ، قال : « وفائدة قوله ﴿ مِنۢ بَعْدِىٓ ﴾ مع قوله ﴿ خَلَفْتُمُونِى ﴾ تذكيرهم ما شاهدوه من معجزاته الباهرة وآياته الظاهرة ، كأنه قيل : بئسما خلفتموني من بعد ما رأيتم مني من المعجزات الدالة على عظمة الله تعالى وقدرته ووحدانيته »[٢].

وفي قوله تعالى ﴿ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴾ (الانفطار:١٩) ، قال الرسعني : « قال مقاتل : لا تملك نفس لنفس كافرة شيئاً ، والصحيح عمومه ، وأن أحداً لا يملك لأحد نفعاً ولا ضرًّا إلا بأمر الله ، ألا تراه يقول : ﴿ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴾ »[٣].

ومما تركه الرسعني في تفسير بعض الآيات دون الإشارة لتفسيرها بآيات أخرى ، وهو ما يدخل في تفسير القرآن بالقرآن ، كما في قوله تعالى ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾ (الأنعام:١٦٠) ، وقوله تعالى ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴾ (النمل:٨٩) ، حيث قال :

---

(١) رموز الكنوز ٤٨٧/٣ .
(٢) المصدر السابق ٢٦٥/٢ .
(٣) المصدر السابق ٥٢٣/٨ .

«وهذه الآية مفسرة في آخر الأنعام»[1] ، بينما قال ابن كثير في تفسير آية الأنعام : «وهذه الآية الكريمة مفصِلة لما أُجمل في الآية الأخرى وهي قوله ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ ﴾»[2] .

وكذلك في قوله تعالى ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا ﴾ (النساء:٩٣) ، وفي قوله تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ (الفرقان:٦٨) ، وقوله تعالى ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ﴾ (الفرقان:٧٠) ، حيث لم يجمع بين معنى الآيتين التي يُظن فيهما تعارض كما قال ابن كثير في تفسيره : «ولا تعارض بين هذه الآية ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا . . . ﴾ وآية النساء ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا ﴾ ، فإن هذه وإن كانت مدنية إلا أنها مُطْلقة فتُحمل على مَنْ لم يتب ؛ لأن هذه مقيدة بالتوبة»[3] .

ثانياً : تفسير القرآن بالسُّنة

بعد أن استعرضنا منهج الرسعني في تفسير القرآن بالقرآن ، وهو أصح طرق التفسير ، يجدر بنا الآن الحديث عن تفسير القرآن بالحديث النبوي الشريف ، وهو المرتبة الثانية ـ كما سبق القول فيه ـ «فإن أعياك ذلك فعليك بالسنة؛فإنها شارحة للقرآن وموضحة له،بل قد قال الإمام الشافعي-رحمه الله-:

---

(١) رموز الكنوز ٥٠٢/٥ ، وفي تفسيره آية الأنعام لم يشر الرسعني إلى آية سورة النمل .

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير الدمشقي ٥٣٧٣/٣ (تحقيق مجموعة ، دار الشعب ، القاهرة) ، ابن كثير ومنهجه في التفسير ، دكتور فرمان إسماعيل إبراهيم ١٢٠ (رسالة ماجستير غير مطبوعة ، كلية العلوم الإسلامية ، جامعة بغداد ، إشراف : الأستاذ الدكتور عبد الستار حامد ، ١٤١١ هـ ، ١٩٩٠م) .

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ١٣٦/٦ ، ابن كثير ومنهجه في التفسير ، دكتور فرمان إسماعيل ١٢١ .

كل ما حكم به رسول الله ﷺ فهو مما فهمه من القرآن ، قال تعالى ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (النحل:٤٤) ، ولهذا يقول الرسول ﷺ فيما رواه المقداد بن معدي كرب : (ألا إني أُوتيت القرآن ومثله معه)[١] . . .

والغرض أنك تطلب تفسير القرآن منه فإن لم تجده فمن السُّنة»[٢] ، ويشير الرسعني إلى أهمية الأخبار والآثار في التفسير بقوله : «التفسير الصحيح هو المدلول عليه بالأخبار والآثار»[٣] ، وتفسيره ﷺ يجب الأخذ به لأنه المعصوم ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴾ (النجم:٣) ، وقبل أن أوضح منهج الرسعني في تفسير القرآن بالسنة النبوية أودّ الإشارة إلى قضيتين هما :

الأولى : عدم البحث في مسألة هل بيّن النبي ﷺ لأصحابه القرآن كله وفسره لهم من أوله لآخره أو لم يفسر إلا القليل من الآيات ، وهي التي سألوا عنها بعد أن أشكلت عليهم ، فتلك مسألة تُطلب وتُبحث في كتب علوم القرآن[٤].

الثانية : سأبحث في هذه الجزئية منهج الرسعني في تفسيره للقرآن بالسُّنة ، وكيف تعامل مع السُّنة بهذا الخصوص ، مبتعداً وتاركاً الحديث عن منهج الرسعني في تعامله مع الحديث ومصطلحه وما يتعلق به بمبحث مستقل يأتي لاحقاً .

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب السُّنة ، باب لزوم السُّنة برقم : ٤٦٠٤ ، والترمذي في كتاب العلم ، باب ما نهي عنه برقم : ٢٦٦٤ ، وقال الترمذي : هذا حديث حسن غريب ، وأحمد في المسند ١٣١/٤ .

(٢) مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية ٧٨ ، الإتقان للسيوطي ٤٥٥/٢ .

(٣) رموز الكنوز ٤٥٣/٤ .

(٤) انظر على سبيل المثال : الإتقان للسيوطي ٤٥٦/٢ ، ومقدمة في أصول التفسير لابن تيمية : ١٦ ، التفسير والمفسرون ، دكتور محمد حسين الذهبي ٤٦/١ وما بعدها ، وقد أفاض الدكتور الذهبي ـ رحمه الله ـ في بحث هذه المسألة .

لقد ذكرت كتب الصحاح والسُّنن قدراً لا بأس به من تفسيرات النبي ﷺ لبعض آيات القرآن الكريم وهو الذى نبتغيه هنا لنعرف منهج الرسعني في التعامل مع السُّنة خاصة إذا ما علمنا أن الرسعني هو عالم من علماء الحديث الذين يشار إليهم بالبنان ويكفي أنه كان يُلَقب بالمحدث ؛ ومما يدل على هذا كثرة أسانيده ورواياته عن شيوخه ، وهذا ما يُعرف من خلال القراءة في تفسيره ـ رحمه الله ـ .

تميّز الرسعني باعتماده على السُّنة النبوية في تفسيره الآيات القرآنية بعد تفسيره بالقرآن الكريم ، وهذا ما يلاحظ لأول نظرة في صفحات التفسير ، ويتضح بعض منه من خلال النقاط الآتية :

١- يكتفي الرسعني بالتفسير عن النبي ﷺ إذا صح عنده الخبر ولا يتعداه لغيره ؛ لأن بيانه ﷺ وحيٌ معصوم لا يساويه غيره من بيان البشر مهما بلغ علمه بنص القرآن الكريم قال تعالى ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾ (النجم:٣،٤) ، كما في الأمثلة الآتية :

ففي قوله تعالى ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾(الأنعام:١٥٣) ، قال الرسعني :« ﴿ فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ ﴾ وهي الضلالات والبدع ، فعن عبد الله ﷺ قال : (خطّ رسول الله ﷺ خطًّا بيده ثم قال : هذا سبيل الله مستقيماً ، ثم خطّ عن يمينه وشماله ، ثم قال : هذه السبل ، ليس فيها سبيل إلا وعليه شيطان يدعو له ، ثم قرأ ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ ﴾»[1] .

---

(١) رموز الكنوز ٢/٤٩،٥٠ ، والحديث أخرجه أحمد ١/٤٣٥ ، والحاكم في كتاب التفسير ، باب تفسير سورة الأنعام ٢/٣١٨ ، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي ، وابن حبان في باب الاعتصام بالسنة ١/١٨٠ برقم : ٧، وقال الشيخ شعيب الأرنؤوط : إسناده حسن ، والدارمي في باب كراهية أخذ الرأي ١/٧٨ برقم : ٢٠٢ (تحقيق : فواز أحمد ، خالد السبع ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط١ ، ١٤٠٧هـ ، ١٩٨٧م).

وفي قوله تعالى ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾ (الزلزلة:٤) ، قال الرسعني : « والمعنى تُحدّث الخلق أخبارها ، أخرج الترمذي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (أتدرون ما أخبارها ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : أخبارها أن تشهد على كل عبد وأمَة بما عمل على ظهرها ، تقول : عمل يوم كذا كذا وكذا) »[1].

٢- يبيّن ويوضح معاني المفردات في الآية الكريمة من خلال استدلاله بالسُّنة ، كما في الأمثلة الآتية :

ففي قوله تعالى ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴾ (الرعد:٢٩) ، قال الرسعني : « والذى عليه جمهور المفسرين أن طوبى شجرة في الجنة ، وفي مسند الإمام أحمد في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رجلاً قال : يا رسول الله طوبى لمن رآك وآمن بك ، فقال : (طوبى لمن رآني وآمن بي ، ثم طوبى ثم طوبى ثم طوبى لمن آمن بي ولم يرني ، قال له رجل : وما طوبى؟ قال شجرة في الجنة مسيرة مائة عام ، ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها) »[2].

وفي قوله تعالى ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴾ (الانشقاق:١٦) ، قال الرسعني :

---

(١) رموز الكنوز ٧٠٢/٨ ، والحديث أخرجه الترمذي في كتاب صفة القيامة ، باب ما جاء في العرض برقم : ٢٤٢٩ ، وقال : هذا حديث حسن غريب ، وابن حبان ٣٦٠/١٦ برقم : ٧٣٦٠ ، والحاكم في كتاب التفسير ، باب سورة الزلزلة ، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي ٥٣٢/٢ ، وأحمد ٣٧٤/٢ .

(٢) رموز الكنوز ٤٨٤/٣ ، والحديث أخرجه أحمد ٧١/٣ ، وابن حبان في كتاب أخباره ﷺ ، باب فضل الأمة برقم : ٧٢٣٠ ، ولم يذكر فيه (وقال له رجل ما طوبى . . .) ، والحديث فيه عبد الله بن لهيعة ، ودرّاج بن أبي السمح ، وكلاهما ضعيف ، انظر : تقريب التهذيب لابن حجر ٢٠١، ٣١٩ (دار الرشيد ، حلب ، ط٤، ١٤١٢هـ ، ١٩٩٢م) .

« هو الحمرة التي تخرج وقت المغرب بغيبوبتها ، وفي الحديث عن النبي ﷺ : (الشفق الحمرة) »[1].

وهذا النوع من التفسير النبوي قليل وربما سبب ذلك ظهور معاني مفردات القرآن الكريم في معظمها للمخاطبين به ، إذ كان الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ أفصح لغة ممن جاء من بعدهم والله أعلم .

٣- يفسر القرآن بالسُّنة رفعاً للإشكال ودفعاً للإيهام أو التعارض بين القرآن والسنة ، كما في الأمثلة الآتية :

ففي قوله تعالى ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴾ (الانشقاق:٧،٨) ، قال الرسعني : « أي سهلاً ، عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : (ليس أحد يحاسب إلا هلك قالت ، قلت : يا رسول الله جعلني الله فداءك ، أليس يقول الله عز وجل ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴾ ، قال : ذلك العرض يعرضون ، ومن نوقش الحساب هلك) »[2] .

وفي قوله تعالى ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ (إبراهيم:٢٧) ، قال : « وفي الصحيحين من حديث البراء رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : (المؤمن إذا سُئل في القبر يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فذلك قوله ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ

---

(١) رموز الكنوز ٥٥٥/٨ ، والحديث أخرجه الدارقطني عن ابن عمر رضي الله عنهما في باب صفة المغرب والصبح ٢٦٩/١، وقال الشيخ محمد شمس الدين العظيم آبادي : حديث غريب ورواته ثقات ، وانظر أيضاً على سبيل المثال تفسيره كلمة (ران) ٥٣٥/٨ .

(٢) رموز الكنوز ٥٥٢/٨ ، والحديث أخرجه البخاري في كتاب التفسير ، باب فسوف يحاسب حساباً يسيراً برقم : ٤٦٥٥ ، ومسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها ، باب إثبات الحساب برقم : ٢٨٧٦ ، وعنده من نوقش الحساب يوم القيامة عُذِّب .

﴿ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْآخِرَةِ ﴾ (إبراهيم:٢٧) [١] ، وفي رواية قال ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ ﴾ نزلت في عذاب القبر ، يقال له : مَنْ ربك؟ فيقول : الله ربي ، ونبيي محمد ﷺ) » [٢].

٤- وقد لا يكتفي الرسعني بحديث واحد في تفسيره الآية ، بل يستدل بأكثر من حديث كما في الآية السابقة ﴿ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴾ حيث استدل بحديث عائشة رضي الله عنها المتقدم ، ثم قال : « وأخرج الحاكم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (ثلاث مَن كُنّ فيه حاسبه الله حساباً يسيراً ، وأدخله الجنة برحمته ، قال لمن يا رسول الله : قال : تعطي من حرمك ، وتعفو عمن ظلمك ، وتصل من قطعك ، قال : فإذا فعلت ذلك فما لي يا رسول الله؟ قال : تحاسب حساباً يسيراً ويدخلك الله الجنة برحمته) » [٣].

٥- يذكر أقوال الصحابة والتابعين ـ رضي الله عنهم ـ بعد ذكره الحديث النبوي في تفسير الآية ، وأحياناً يُقدِّم أقوالهم على الحديث في الترتيب ، وهذا ما يؤاخذ عليه الرسعني في تفسيره ، كما في الأمثلة الآتية :

ففي قوله تعالى ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾ (طه:١٢٤)، قال الرسعني : « وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه

---

(١) رموز الكنوز ٥٣٩/٣ ، والحديث أخرجه البخاري في كتاب التفسير ، باب يثّبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت برقم : ٤٤٢٢ .

(٢) رموز الكنوز ٥٣٩/٣ ، والحديث أخرجه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها ، باب عرض مقعد الميت برقم : ٢٨٧١ .

(٣) رموز الكنوز ٥٥٢/٨، والحديث أخرجه الحاكم في كتاب التفسير (سورة الانشقاق) ٥١٨/٢ ، وقال الحاكم : وهذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وقال الذهبي : ضعيف ، فيه سليمان بن داود اليمامي ، قال عنه ابن معين : ليس بشيء ، وقال البخاري : منكر الحديث ، وقال ابن حبان : ضعيف ، انظر هذه الأقوال في لسان الميزان لابن حجر ٨٣/٣ .

أن رسول الله ﷺ قال : (أتدرون ما المعيشة الضنك؟ قالوا الله ورسوله أعلم ، قال : عذاب الكافر في قبره ، والذي نفسي بيده إنه يُسلّط عليه تسعة وتسعون تنيناً ، أتدرون ما التنين؟ تسعة وتسعون حية لكل حية سبعة رؤوس ينفخون في جسمه ويلسعونه ويخدشونه إلى يوم القيامة)[1] ، قال أبو سعيد الخدري : المعيشة الضنك عذاب القبر ، يلتئم على صاحبه فلا يزال يُعذب حتى يبعث ، ويُروى عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : شدة عطشه في النار»[2] .

وفي قوله تعالى ﴿ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾ (الصافات:١٤٧) ، قال الرسعني : «واختلفوا في مقدار زيادتهم ، فقال قوم : كانوا يزيدون عشرين ألفاً ، أخرج الترمذي من حديث أُبي بن كعب رضي الله عنه قال : (قال رسول الله ﷺ : عن قوله تعالى ﴿ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾، قال : يزيدون عشرون ألفاً)[3] ، وهذا قول عامة المفسرين ، وقال الحسن : بضعة وثلاثين ألفاً ، وقال سعيد بن جبير : سبعين ألفاً»[4] .

وكذلك في قوله تعالى ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴾ (الدخان:٢٩)، قال الرسعني : «اختلف العلماء في هذه الآية على ثلاثة أقوال : **أحدها** : أنه على حقيقته وظاهره ، حتى قال ابن عباس رضي الله عنهما : الحمرة التي في السماء بكاؤها ، وقال علي رضي الله عنه : إن المؤمن إذا مات بكى عليه مصلاه من الأرض ، ومصعد عمله من السماء ، وإن آل فرعون لم يكن

---

(١) أخرجه ابن حبان في كتاب الجنائز ، باب أحوال الميّت وقبره ٣٩٢/٧، ٣٩٣ برقم : ٣١٢٢ ، والبزار في تفسير سورة طه ، كما في كشف الأستار ٥٨/٣ برقم : ٢٢٣٣ ، (تحقيق : حبيب الرحمن الأعظمي ، مؤسسة الرسالة ، ط١ ، ١٤٠٤هـ ، ١٩٨٤م) ، وقال الهيثمي : وفيه مَن لم أعرفه ، انظر مجمع الزوائد ٦٧/٧ ، وحسّنه الشيخ شعيب الأرنؤوط .

(٢) رموز الكنوز ٥٧٧/٤ ، ٥٧٨ .

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب التفسير ، باب سورة الصافات برقم : ٣٢٢٩ ، وعنده قال : عشرون ألفاً بدون يزيدون ، وقال الترمذي : هذا حديث غريب .

(٤) رموز الكنوز ٤٣٢/٦ ، وانظر أيضاً ٦٠٩/٨ ، ٧٥٠/٨ .

لهم في الأرض مصلى ولا في السماء مصعد عمل ، فقال تعالى ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ ﴾ ، وقال مجاهد : ما مات مؤمن إلا بكت عليه السماء والأرض أربعين صباحاً .... وإلى هذا القول ذهب عامة المفسرين المتقدمين ، ويؤيده ما أخرج الترمذي من حديث أنس بن مالك ﷺ أن رسول الله ﷺ قال :(ما من مؤمن إلا وله بابان ، باب يصعد منه عمله ، وباب ينزل منه رزقه ، فإذا مات بكيا عليه) فذلك قوله تعالى ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴾ [1] **والثاني** : على حذف المضاف ، وتقديره فما بكى عليهم أهل السماء ، **والثالث** : على مذهب العرب يقولون : إذا مات رجل خطير بكت عليه السماء والأرض »[2].

٦- يرجِّح الحديث النبوي في تفسيره الآية بعد ذكره الأقوال ، وأحياناً يترك الأقوال دون ترجيح كأنه يرتضيها جميعاً ، كما في الأمثلة الآتية :

ففي قوله تعالى ﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ (يس:٣٨)، قال الرسعني : « أي إلى مستقر وحَدٌّ معلوم ينتهي سيرها إليه ، وهو يوم القيامة في قول مقاتل وكثير من المفسرين ، وقال ابن السائب : مستقرها أبعد منازلها في الغروب ، ثم ترجع إلى أدنى منازلها ، وقال قتادة : تجري لوقت واحد لا تعدوه ، والصحيح في تفسيرها : ما أُخرج في الصحيحين من حديث أبي ذر ﷺ قال : (سألت رسول الله ﷺ عن قوله تعالى ﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ﴾ ، قال : مستقرها تحت العرش) »[3].

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب التفسير ، باب سورة الدخان برقم : ٣٢٥٥ ، ، وفي سنده موسى بن عبيدة ، ويزيد بن أبان الرقاشي يضعفان في الحديث ، وقال الترمذي : هذا حديث غريب ، انظر : تقريب التهذيب لابن حجر ٥٥٢ ، ٥٩٩ .

(٢) رموز الكنوز ١٧٠/٧، ١٧١ بتصرف ، وانظر أيضاً ٥٥١/٨ .

(٣) رموز الكنوز ٣٣٦/٦ ، ٣٣٧ ، والحديث أخرجه البخاري في كتاب التفسير ، باب سورة يس برقم : ٤٥٢٥ ، ومسلم في كتاب الإيمان ، باب بيان الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان برقم : ١٥٩ .

وفي قوله تعالى ﴿ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴾ (البروج:٣)، يقول الرسعني : « وفي قوله ﴿ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴾ أقوال كثيرة ، أشهرها وأولاها ما رُوي عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال : (اليوم الموعود يوم القيامة ، والشاهد يوم الجمعة ، والمشهود يوم عرفة) »[١] .

وكذلك في قوله تعالى ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴾ (ق:٤٠) ، يقول الرسعني : « قال ابن عباس ﷺ : أمره أن يسبح في أدبار الصلوات كلها ، يعني قوله تعالى ﴿ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴾ ، وقال عمر ، وعلي ، والحسن بن علي ، وأبي هريرة ، والحسن ، ومجاهد ، والشعبي ، والنخعي ، وقتادة ـ رضي الله عنهم ـ : هو الركعتان بعد المغرب ، وأخرج الترمذي عن ابن عباس ﷺ عن النبي ﷺ قال : (إدبار النجوم الركعتين قبل الفجر ، وإدبار السجود الركعتين بعد المغرب)[٢] ، وقال ابن زيد : النوافل بعد المفروضات »[٣] ، ويتضح مما سبق أن الرسعني ترك الأقوال دون ترجيح كأنه ارتضاها جميعاً ، أو تساوت أدلتها قوة عنده فتوقف فيها .

٧- يسوق الحديث لتأكيد معنى الآية الكريمة ، كما في قوله تعالى ﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴾ (التكاثر:١،٢)، قال الرسعني : « والمعنى : شغلكم التفاخر بكثرة الرجال الأشراف ، ويدخل في ذلك التكاثر بالأموال والأولاد ، ﴿ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴾ فعدّدتم من فيها من أشرافكم ، وقيل

---

(١) رموز الكنوز ٥٦٢/٨ ، ٥٦٣ ، والحديث أخرجه الترمذي في كتاب التفسير ، باب سورة البروج برقم : ٣٣٣٩ ، وتكملة الحديث (وما طلعت الشمس ولا غربت على يوم أفضل منه ، فيه ساعة لا يوافقها عبد مؤمن يدعو الله بخير إلا استجاب الله له ولا يستعيذ من شر إلا أعاذه الله منه) ، وقال : هذا حديث حسن غريب ، وعند الترمذي (المشهود يوم عرفة ، والشاهد يوم الجمعة) ، ولهذا الضمير في تكملة الحديث يعود ليوم الجمعة وليس ليوم عرفة وكلاهما يومان مباركان .

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب التفسير ، باب سورة الطور برقم : ٣٢٧٥ وقال : هذا حديث غريب .

(٣) رموز الكنوز ٣٩٩/٧ ، ٤٠٠ .

المعنى : حتى أدرككم الموت على تلك الحال ، وفي الصحيحين من حديث عبد الله بن الشخير أنه قال : انتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو يقول : (ألهاكم التكاثر) ، قال : يقول ابن آدم : مالي مالي ، وما لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت ، أو لبست فأبليت ، أو تصدقت فأمضيت) »[1].

٨- يذكر الرسعني جملة أحاديث للدلالة على المعنى وتوكيده ، أو لا يكتفي بحديث واحد ، كما في قوله تعالى ﴿ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ ﴾ (النساء:٣٦)، قال الرسعني : « الظاهر أنه يريد به قرابة النسب ، ثم ساق عدة أحاديث في الصحيحين في حقوق الجيران كحديث ابن عمر وعائشة رضي الله عنهم أن النبي ﷺ قال : (ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه)[2] ، وفي صحيح مسلم من حديث أبي ذر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال له : (يا أبا ذر ، إذا طبخت قِدْراً فأكثر المَرقة ، وتعاهد جيرانك) »[3] ، وأكتفي بهذا المثال اختصاراً .

٩- يسوق الحديث من سنده في تفسير الآية فيذكر السند ، وأحياناً لا يذكره اختصاراً ، كما في هذه الأمثلة ، وسيأتي الحديث مفصلاً عن منهجه في السُّنة بمبحث مستقل .

---

(١) رموز الكنوز ٧٢٠/٨ ، والحديث أخرجه مسلم في كتاب الزهد والرقائق ، باب الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر ، عن مطرف عن أبيه برقم : ٢٩٥٨ ، ولم يخرّجه البخاري ، وقول الرسعني في الصحيحين : لعله أراد في الصحيح .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الأدب ، باب الوصاة بالجار برقم : ٥٦٦٨ و ٥٦٦٩ ، ومسلم في كتاب البر والصلة والآداب ، باب الوصية بالجار والإحسان إليه برقم : ١٤١/٢٦٢٥ .

(٣) رموز الكنوز ٥٠١/١ ، والحديث أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب ، باب الوصية بالجار والإحسان إليه برقم : ١٤٢/٢٦٢٥ .

ففي قوله تعالى ﴿ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (آل عمران:٦٨)، قال الرسعني : « قوله تعالى ﴿ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ ﴾ على مِلّته وسنته ، ﴿ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ ﴾ يعني : محمداً ﷺ ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، يقول الرسعني : أنبأنا حنبل بن عبد الله بن الفرج بن شعبان أبو علي[1]، أخبرنا أبو القاسم هبة الله بن الحصين[2]، أخبرنا أبو علي بن المذهب[3]، أخبرنا أبو بكر أحمد بن جعفر بن حمدان القطيعي[4]، أخبرنا عبد الله ـ يعني ابن الإمام أحمد ـ قال : حدثني أبي ، حدثنا عبد الرحمن ، عن سفيان عن أبيه عن أبي الضحى ، عن مسروق عن عبد الله رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (لكل نبي ولاة من النبيين ، وإن وليِّ منهم أبي وخليل ربي ، ثم قرأ ﴿ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ . . . ﴾»[5]، وهناك أحاديث يحذف سندها اختصاراً وهي قليلة إلى جانب رواياته بسنده المتصل[6] ، كما لا يخفى ذكره أحاديث من غير سنده فيذكر سندها وأحياناً يحذفه ، كما في الأمثلة الآتية .

---

(١) سبقت ترجمته ص٦٨ .

(٢) هو : هبة الله بن محمد بن عبد الواحد بن الحصين أبو القاسم الشيباني البغدادي ، مسند العراق ، وكان ديّناً صحيح السماع ، توفي سنة ٥٢٥ هـ ، انظر : ترجمته في شذرات الذهب لابن العماد ٤/٧٧ .

(٣) هو : الحسن بن علي بن محمد أبو علي بن المذهب التميمي البغدادي ، الواعظ ، راوي مسند الإمام أحمد ، توفي سنة ٤٤٤ هـ ، انظر : ترجمته في شذرات الذهب ٣/٢٧١ .

(٤) هو : أحمد بن جعفر بن حمدان بن مالك ، أبو بكر القطيعي ، البغدادي ، مسند العراق ، وراوي مسند الإمام أحمد ، كان شيخاً صالحاً ، توفي سنة ٣٦٨هـ ، انظر : ترجمته في شذرات الذهب ٣/٦٥ .

(٥) رموز الكنوز ١/٢١٠ ، ٢١١ ، والحديث أخرجه الترمذي في كتاب التفسير ، باب سورة آل عمران برقم : ٢٩٩٥، وقد ذكره الترمذي متصلاً كما جاء في سند الرسعني، وأخرجه الترمذي بسند آخر وقال : هذا أصح من حديث أبي الضحى عن مسروق ، والحاكم في كتاب التفسير ٢/٢٩٢ ، وقال : صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبي ، وأحمد ١/٤٠٠ ، ٤٠١ .

(٦) رموز الكنوز : على سبيل المثال ٢/٤٠٥ ، ٤/٢٠٨ ، ٧/٥٣٥ ، ٥٣٦ .

ففي قوله الله تعالى ﴿ إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴾ (النساء:٣١) ، قال الرسعني : «وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : (اجتنبوا السبع الموبقات ، قالوا يا رسول الله وما هنّ؟ قال : الشرك بالله ، والسِّحر ، وقتل النفس التي حرّم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتوليّ يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات)»[1].

وفي قوله تعالى ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (الزمر:٦٧) ، يقول الرسعني : «قال البخاري : حدثنا سعيد بن عفير[2] ، . . .

حدثني الليث[3] ، حدثني عبد الرحمن بن خالد بن مسافر[4] ، عن ابن شهاب ، عن أبي سلمة ، أن أبا هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (يقبض الله الأرض ويطوي السموات بيمينه ثم يقول : أنا الملك أين ملوك الأرض)»[5].

---

(١) رموز الكنوز ٤٨٦/١ ، والحديث أخرجه البخاري في كتاب الوصايا ، باب قول الله تعالى (إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً . . .) برقم : ٢٦١٥ ، ومسلم عن أنس ابن مالك في كتاب الإيمان ، باب بيان الكبائر وأكبرها برقم : ٨٩ .

(٢) هو : سعيد بن كثير بن عفير أبو عثمان المصري ، الحافظ العلامة ، قاضي الديار المصرية ، كان فقيهاً وشاعراً ، ونسّابة ، توفي سنة ٢٢٦هـ ، انظر : ترجمته في شذرات الذهب لابن العماد ٥٨/٢ .

(٣) هو : الليث بن سعد بن عبد الرحمن الفهمي أبو الحرث ، شيخ الديار المصرية وعالمها ، الفقيه ، الثقة ، توفي سنة ٢٧٥ هـ ، انظر : ترجمته في شذرات الذهب ٢٨٥/١ .

(٤) هو : عبد الرحمن بن خالد بن مسافر ، ويقال اسم جده ثابت بن مسافر ، أبو الوليد ، أو أبو خالد الفهيمي المصري ، كان ثبتاً في الحديث ، توفي سنة ١٢٧ هـ ، انظر : ترجمته في تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني ١٥٠/٦ (دار الفكر ، بيروت ، ط١ ، ١٤٠٤هـ ١٩٨٤م) .

(٥) رموز الكنوز ٥٧٥/٦ ، ٥٧٦ ، والحديث متفق عليه أخرجه البخاري في كتاب التفسير ، باب قوله (والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه) برقم : ٤٥٣٤ ، ومسلم في كتاب صفات المنافقين وأحكامهم ، باب صفة القيامة والجنة والنار برقم : ٢٧٨٧ .

١٠- ومما اعتنى به الرسعني تفسيره بعض آيات القرآن بالأحاديث القدسية ، كما في المثال الآتي :

ففي قوله تعالى ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءً بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾(السجدة:١٧) ، قال الرسعني : « وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (يقول الله عز وجل أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، اقرؤوا إن شئتم ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ »[١].

١١- مما يؤاخذ عليه الرسعني في منهجه في التفسير ، تفسيره آيات القرآن بالأحاديث الضعيفة[٢] أو إغفاله التعقيب على الحديث الضعيف أو الذي فيه نظر ، كما في المثال الآتي :

ففي قوله تعالى ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ (هود:٧) ، يقول الرسعني : « وقد روى ابن عمر رضي الله عنهما ، عن النبي ﷺ في قوله ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ أنه قال : (أيكم أحسن عقلاً ، وأورع عن محارم الله عز وجل ، وأسرع في طاعة الله) »[٣].

---

(١) رموز الكنوز ٨٥/٦ ، والحديث متفق عليه أخرجه البخاري في كتاب بدء الخلق ، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة برقم : ٣٠٧٢ ، ومسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها برقم : ٢٨٢٤ .

(٢) سيأتي الكلام ـ كما قلت سابقاً ـ لاحقاً عن منهجه في السُنة وكيف كان يتعامل مع الحديث من حيث التخريج ونقده سند الحديث ، فضلاً عن تعقيباته في المصطلح .

(٣) رموز الكنوز ١٢٣/٣، ١٢٤ ، والحديث أخرجه الطبري في تفسيره ٥/١٢ ، وابن أبي حاتم ، ٢٠٠٦/٦ برقم : ١٠٧٠٥ ، وذكره السيوطي في الدر المنثور ٣٢٢/٣ ، (دار المعرفة ، بيروت) ، وكلهم أخرجوه عنه داود بن المحبِّر ، قال الحافظ ابن حجر : داود بن المحبِّر متروك ، وأكثر كتاب العقل الذي صنّفه موضوعات ، انظر : تقريب التهذيب لابن حجر العسقلاني ٢٠٠ .

١٢- يترك بعض الأحاديث في تفسير الآيات ، كما في الأمثلة الآتية :

ففي قوله تعالى ﴿ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (الرعد:٤) ، قال الرسعني : « والمعنى يفضل بعضها على بعض في الطعم ، هذا حلو ، وهذا حامض ، وهذا بينهما »[١].

ولم يُشر الرسعني إلى حديث الترمذي والحاكم عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ في قوله تعالى ﴿ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ ﴾ قال : (الدقل والفارسي والحلو والحامض)[٢].

وفي قوله تعالى ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ (إبراهيم:٤٨)، ذكر الرسعني أحاديث عدة في تفسير هذه الآية ، ولم يذكر حديث مسلم عن ثوبان ﷺ قال : (جاء حِبر من اليهود إلى النبي ﷺ فقال : أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض ؟ فقال رسول الله ﷺ : هم في الظلمة دون الجسر)[٣] ، ولعل الرسعني اكتفى بحديث عائشة رضي الله عنها في صحيح مسلم قالت : سألت رسول الله ﷺ عن قوله ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ﴾ قلت : أين يكون الناس يومئذ يا رسول الله؟ قال : على الصراط[٤] .

---

(١) رموز الكنوز ٣/٤٤١ .

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب التفسير ، باب سورة الرعد برقم : ٣١١٨ ، والحاكم في كتاب التفسير ٢/٢٤١ ، ذكره مختصراً ، وقال : حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي ، وقال الترمذي : هذا حديث حسن غريب ، والدقل : الرديء اليابس من التمر ، والفارسي نوع من التمر .

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الحيض ، باب صفة منيّ الرجل والمرأة برقم : ٣١٥ .

(٤) رموز الكنوز ٣/٥٧٣ ، والحديث أخرجه مسلم في كتاب صفات المنافقين وأحكامهم ، باب البعث والنشور وصفة الأرض يوم القيامة برقم : ٢٧٩١ .

وفي قوله تعالى ﴿ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾ (الحج:٣٣)، لم يتطرق الرسعني إلى معنى البيت العتيق ، ولمِ سُمي به ، وأغفل حديث الترمذي عن ابن الزبير رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (إنما سُميّ البيت العتيق ، لأنه لم يظهر عليه جبار)[1].

ثالثاً : تفسير القرآن بأقوال الصحابة

تتجلى أهمية تفسير القرآن بأقوال الصحابة رضي الله عنهم عند عدم وجود تفسير الآية في القرآن أو السنة ؛ لأنهم أدرى بذلك لما شاهدوه من القرآن ، والأحوال التى اختصوا بها ، ولما لهم من الفهم التام والعلم الصحيح ، لاسيما علماؤهم وكبراؤهم[2]، ولا يخفى على المتتبع لهذا الأمر أهمية تفسير الصحابى لما سبق من أسباب ، ولأهمية هذا النوع من التفسير فقد اعتنى العلماء به وزيّنوا كتبهم بالروايات عن الصحابة ، فضلاً عن عناية علماء الحديث والأصول بحكم تفسير الصحابي ، وهل يعدّ من قبيل الموقوف أم المرفوع ، وهذا ما سأشير إليه باختصار .

اتفق العلماء على أن تفسير الصحابي له حكم المرفوع ، إذا لم يكن للرأي والاجتهاد فيه مجال ، كمعرفة أسباب النزول ، وأحوال اليوم الآخر ، كما قال ابن الصلاح في مقدمته : « ما قيل من أن تفسير الصحابي حديث مسند ، فإنما ذلك في تفسير يتعلق بسبب نزول آية يخبر له الصحابي أو نحو ذلك ، مما لا يمكن أن يؤخذ إلا عن النبي ﷺ ولا مدخل للرأي فيه ، فأما سائر

---

(١) رموز الكنوز ٥/٥٥ ، والحديث أخرجه الترمذي في كتاب التفسير ، باب سورة الحج برقم : ٣١٧٠ ، وقال : هذا حديث حسن صحيح ، والبيهقي في شُعب الإيمان ، باب في المناسك برقم : ٤٠١٠ (دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ١٤١٠ هـ ، ١٩٩٠م) ، والحاكم في كتاب التفسير ٢/٣٨٩ ، وقال : صحيح على شرط البخاري ولم يخرّجه ، ووافقه الذهبي .

(٢) مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية ٧٩ .

تفاسير الصحابة التي لا تشتمل على إضافة شيء إلى رسول الله ﷺ فمعدودة في الموقوفات»[1] .

وقد ذهب ابن القيم إلى أن «قول الصحابي في التفسير يكون حجة إذا لم يكن في المسألة نص يخالفه ، وأن يقول في الآية قولاً لا يخالفه فيه أحد من الصحابة ، سواء عُلم لاشتهاره ، أو لم يُعلم»[2] ، أما ما عدا ذلك مما يكون فيه مجال للرأي والاجتهاد فهذا لأهل العلم فيه قولان :

الأول : أن الموقوف على الصحابي من التفسير لا يجب الأخذ به ؛ لأنه لما لم يرفعه علم أنه اجتهد فيه .

الثاني : يجب الأخذ به والرجوع إليه ، لظن السماع من الرسول ﷺ ولأن تفسيرهم بالاجتهاد والرأي أصوب من غيرهم ، فهم أقرب الناس برسول الله ﷺ ، وشهدوا الوحي والتنزيل ، وأفصح لساناً ، ولما شاهدوه من القرائن والأحوال التي اختصوا بها[3].

والخلاصة في هذا أن تفسير الصحابي له حكم المرفوع إذا كان يرجع لأسباب النزول ، وكل ما ليس للرأي فيه مجال وكذلك ما حكم عليه أنه من

---

(١) مقدمة ابن الصلاح ١٢٨، ١٢٩ (تحقيق : دكتور عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ)، دار الكتب المصرية ، ١٩٧٤م) ، وتدريب الراوي ، جلال الدين السيوطي ١٥٦ (تحقيق : محمد أيمن الشبراوي ، دار الحديث ، القاهرة ، ١٤٢٥هـ ، ٢٠٠٤م) ، وقال الحاكم : «إن تفسير الصحابي الذي شهد الوحي والتنزيل فأخبر عن آية من القرآن أنها نزلت في كذا فإنه حديث مسند» ، انظر : معرفة علوم الحديث للحاكم ٢٠ (تحقيق : دكتور السيد معظم حسين ، المكتبة العلمية في المدينة المنورة ، ط٢ ، ١٣٩٧هـ ، ١٩٧٧م) ، وقد أجاب السيوطي على هذا الرأي فقال : والحاكم أطلق في المستدرك ، وخصّص في علوم الحديث ، فاعتمد الناس تخصيصه وهذا التخصيص هو الذي صرّح به ابن الصلاح والسيوطي وغيرهم .

(٢) إعلام الموقعين ، ابن قيم الجوزية ٤١١/٢ (تحقيق : عصام الدين الصبابطي ، دار الحديث ، القاهرة ، ١٤٢٥هـ ، ٢٠٠٤م) .

(٣) إعلام الموقعين لابن القيم ٤١١/٢ ، التفسير والمفسرون للذهبي ٨٩/١ .

قبيل المرفوع لا يجوز رده ، وأما الموقوف فالأولى الأخذ به للأسباب التي سبقت[1]، وهذا ما تطمئن إليه النفس ويميل إليه القلب ، لكن مرتبته ليست كالمرفوع[2]، ومما تجدر الإشارة إليه أن معرفة هذه المسألة تترتب عليها قضية مهمة تتعلق في التفاضل بين رأي الصحابة والتابعين .

ويعنينا من هذا الأمر الوقوف على مدى اعتماد الرسعني على تفسير الصحابة ، وتعامله مع أقوالهم وكيفية الاستدلال بها في تفسير الآيات الكريمة وهذا ما سيتضح من خلال النقاط التالية :

١- استدلاله بأقوال الخلفاء الراشدين وكبار الصحابة رضي الله عنهم ، وما سيأتي من أمثلة توضح هذه المسألة .

٢- نقله عن الصحابة رضي الله عنهم وخاصة فيما يتعلق بأسباب النزول ، والقراءات القرآنية ، وقد أعرضت عن ذكر الأمثلة هنا خشية التكرار ؛ لأن هناك مباحث خاصة بهما سيفصل فيها القول .

٣- يستدل بأقوال الصحابة لبيان معاني المفردات ولإيضاح المراد من اللفظ ، كما في الأمثلة الآتية :

ففي قوله تعالى ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ ﴾(آل عمران:١٤)، يقول الرسعني : « المسوّمة ، الراعية ، وقيل : المسوّمة المعلّمة بالشّيات والألوان ، رُوي عن ابن عباس »[3].

وفي قوله تعالى ﴿ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ (آل عمران:٧٩) ، قال الرسعني : « قال علي ﷺ : الربانيون ،

---

(١) التفسير والمفسرون للذهبي ٨٩/١ .

(٢) وقد فصّلت معظم كتب الأصول والحديث هذه المسألة في باب حُجيّة الصحابي .

(٣) رموز الكنوز ١٣٦/١، ١٣٧ .

الذين يُغذّون الناس بالحكمة ، ويربونهم عليها ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : هم الفقهاء العلماء الحكماء»[1] .

وكذلك في قوله تعالى ﴿ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ﴾ (النحل:٦٧) ، قال الرسعني : «وفي السكر أقوال : **أحدها** : الخمر ، قاله ابن مسعود وابن عباس وابن عمر رضي الله عنهم . **الثاني** : أنه الخلّ بلغة الحبشة ، رواه العوفي عن ابن عباس»[2].

٤- يستشهد بأقوال الصحابة في المسائل الفقهية ، كما في الأمثلة الآتية .

ففي قوله تعالى ﴿ وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ﴾ (النساء:٦) ، يقول الرسعني : «واتفق جماهير الأمة ، ومشاهير الأئمة على شرعية الحِجْر على السفيه المبذِّر ، منهم علي ، وعثمان ، والزبير ، وعائشة ، وابن عباس رضي الله عنهم»[3].

وفي قوله تعالى ﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ﴾ (النور:٣١) ، قال الرسعني : «الزينة ما تتزين به المرأة ، وتنقسم إلى قسمين : زينة خفية وزينة ظاهرة ، فأما الزينة الخفية فلا يجوز إبداؤها للأجانب في حال التزّين بها ، وأما الزينة الظاهرة المستثناة في الآية فيجوز إبداؤها للأجانب وقد اختلف فيها ، فقال ابن مسعود : هي الثياب ، وقال ابن عباس : هي الكحل والخاتم ، وفي رواية أخرى هي الكفّ والوجه»[4] ، ولم يرجح الرسعني أحد الآراء واكتفى بذكرها وكأنه ارتضاها .

٥- يلاحظ على الرسعني ذكره أقوال الصحابة رضي الله عنهم دون أن يشير إلى مصادرها ، أو يسوقها بسندها المتصل كما يفعل بعض المفسرين ،

---

(١) رموز الكنوز ١/٢٢٧ .
(٢) المصدر السابق ٤/٥٤ بتصرف .
(٣) المصدر السابق ١/٤٢٤ .
(٤) المصدر السابق /٢٣٥، ٢٣٦ بتصرف .

ويبدو أن عمله هذا من قبيل الاختصار ، وهو ما سار عليه معظم المفسرين[1] ، وما ذكر أوسيذكر يغني عن الأمثلة في هذه المسألة .

٦- استدل الرسعني بأقوال الصحابة رضي الله عنهم لبيان معنى الآية ، كما في الأمثلة الآتية :

ففي قوله تعالى ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (آل عمران:١٣٣) ، قال الرسعني : « ومعنى الآية بادروا إلى موجبات المغفرة وهي طاعة الله تعالى ، وقال ابن عباس : لا تُصروا على الذنب ، إذا أذنب أحد فليسرع الرجوع ، وقال عثمان بن عفان ﷺ : سارعوا إلى الإخلاص ، وقال علي ﷺ : إلى أداء الفرائض ، وقال أنس ابن مالك ﷺ : التكبيرة الأولى من العبادة »[2] ، ويلاحظ هنا أيضاً عدم ترجيحه بين هذه الأقوال وكأنه ارتضاها جميعاً ، كما لا يخفى تقديمه قول ابن عباس ﷺ على قول الخلفاء الراشدين كعثمان وعلي رضي الله عنهما .

وفي قوله تعالى ﴿ لَّا تَجْعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ﴾ (النور:٦٣) ، قال الرسعني : « وقال ابن عباس ﷺ : احذروا دعاء الرسول عليكم إذا اسخطتموه ، فإن دعاءه موجب ، ليس كدعاء غيره »[3] .

٧- لم يكن الرسعني مجرد ناقل لأقوال الصحابة بل كان يوّجه أقوالهم ، ويوفق بينها دفعاً للتعارض أو منعاً للإشكال ، كما في الأمثلة الآتية :

ففي قوله تعالى ﴿ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ ﴾ (التوبة:٩٢) ، قال الرسعني : « قال ابن عباس : سألوه الدواب ، وقال أنس بن مالك : سألوه الزاد ، ولا تنافي بين هذه الأقوال ، لجواز أن يكون كل واحد سأل ما يحتاج إليه ، ويتوقف خروجه عليه »[4] .

---

(١) رموز الكنوز : انظر على سبيل المثال ٥٦٧/٣، ٥٦٨ ، ٥٧١/٣ ، ٥٩٦/٣ ، ٥٤/٤ ، ٣٥٣/١ ، ١٨٤/١ ، ١٨٥ ، وغيرها .

(٢) المصدر السابق ٢٢٩/١-٣٠٠ .

(٣) المصدر السابق ٢٩٤/٥ .

(٤) المصدر السابق ٥٧٦/٢ .

وفي قوله تعالى ﴿ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴾ (مريم:٥) ، قال الرسعني : « قال ابن عباس : خاف أن يرثوه » ، ثم عقّب الرسعني موجهاً وموضحاً قول ابن عباس فقال : « ومعنى قول ابن عباس (خاف أن يرثوه) أي خاف أن يرثوه فيسيؤوا خلافته فيما يرثونه منه من القيام بأمور الدين وحقوق الموّحدين »[١].

٨- التوفيق بين آراء الصحابة والحديث النبوي ، وترجيحه الحديث على تفسير الصحابي[٢].

ففي قوله تعالى ﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾ (الكهف:٤٦) ، قال الرسعني : « أي أفضل جزاء وخير أملاً من الآمال المتعلقة بالأموال والبنين ، قال ابن عباس : هي جميع أعمال الحسنات ، والمشهور في التفسير أنها ما رُوي عن علي ﷺ عن النبي ﷺ قال : (إنها لا إله إلا الله ، والله أكبر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله)[٣] ، وسُئل عنها عثمان بن عفان ﷺ فقال : هذه الكلمات وزادها ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، وقد ذكرت أن هذا وأمثاله ليس على سبيل الحصر ، وإنما هو لبيان جنس المراد بذكر بعض أنواعه »[٤].

---

(١) رموز الكنوز ٣٩٠/٤ ، ٣٩١ ، وانظر أيضاً ١٥٩/٥ في توجيهه قول ابن عباس في النفخ هل هي نفخة الموت أم البعث؟ .

(٢) سبق الكلام عن تقديم وترجيح التفسير النبوي للقرآن على تفسير الصحابة في فقرة تفسير القرآن بالسنة ، انظر : ص١٩٤، ١٩٥ .

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٢٢٥/٤ عن ابن مردويه ، وله طرق أخرى عن أبي سعيد الخدري ، فأخرجه ابن حبان في كتاب الرقائق ، باب الأذكار ١٢١/٣ برقم : ٨٤٠ ، وأحمد ٧٥/٣ ، والحاكم في كتاب الدعاء ٥١٢/١ وصححه ووافقه الذهبي ، والحديث في سنده درّاج عن أبي الهيثم ، قال عنه ابن حجر : صدوق ، حديثه عن أبي الهيثم فيه ضعف ، انظر : تقريب التهذيب ٢٠١ .

(٤) رموز الكنوز ٢٩٧/٤ ، ٢٩٨ بتصرف .

وفي قوله تعالى ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ﴾ (العنكبوت:٢٩)، قال الرسعني : « روى الحاكم في صحيحه بإسناده عن أم هانئ بنت أبي طالب رضي الله عنها قالت : (سألت رسول الله ﷺ عن قوله ﴿ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ﴾ قلت : ما المنكر الذى كانوا يأتون؟ قال : كانوا يحذفون أهل الطريق ويسخرون منهم)[١] ، وروى عروة عن عائشة رضي الله عنهما : أنه تحابقهم[٢] في مجالسهم ، وقال ابن عباس رضي الله عنه : هو إتيانهم الرجال ، ولا منافاة بين الحديث وهذه الأقوال ؛ لأنه يَصْدُق على ذلك كله اسم المنكر »[٣].

وكذلك في قوله تعالى ﴿ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴾ (الكهف:٧٣)، قال الرسعني : « قال أُبي بن كعب : لم ينس ، ولكنه من معاريض الكلام ، فعلى هذا يكون النسيان بمعنى الترك ، وأراد موسى عليه السلام إلهامه أنه قد غفل ليبسط له في العذر ، غير أن الحديث الصحيح يدفع هذا التأويل ويبطله من أصله وهو قوله عليه السلام (كانت الأولى من موسى نسياناً) »[٤].

٩- نقله عن الصحابة في مجال القصص والأخبار[٥]

---

(١) أخرجه الحاكم في كتاب التفسير ٤٠٩/٢ ، وصححه ووافقه الذهبي .

(٢) الحبق : محركة نبات طيب الرائحة ، وبالكسر الضِّراط ، القاموس المحيط للفيروزآبادي ٨٧٢ (حبق) .

(٣) رموز الكنوز ٦١٢/٥ ، ٦١٣ .

(٤) المصدر السابق ٣٢٨/٤ ، ٣٢٩ ، والحديث متفق عليه أخرجه البخاري عن أُبي ابن كعب في كتاب التفسير ، باب (وإذ قال موسى لفتاه . . .) برقم : ٤٤٤٨ ، من حديث طويل ، ومسلم عنه في كتاب الفضائل ، باب من فضائل الخضر عليه السلام برقم : ٢٣٨٠ .

(٥) وهذا مجال ظهر فيه الخلاف بين الصحابة ، وتعددت أقوالهم ، ولعل لِمَنْ أسلم من أهل الكتاب دور في هذا الخلاف ، وسيأتي مزيد من البحث في مجال القصص والإسرائيليات في مبحث مستقل إن شاء الله .

ففي قوله تعالى ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴾ (الكهف:٨٣) ، قال الرسعني : « واختلف في اسمه فقال علي ﷺ : عبد الله ، وقال ابن عباس : عبد الله بن الضحاك وذكر أقوالاً في سبب تسميته بذي القرنين »[١].

١٠- تقديمه وترجيحه قول صحابي على قول آخر ، وكذلك ترجيحه قول الصحابي على قول التابعين ، كما في الأمثلة الآتية :

ففي قوله تعالى ﴿ وَءَاتَيْنَـٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَـٰبِدِينَ ﴾ (الأنبياء:٨٤) ، قال الرسعني : « (وآتيناه أهله) يعني : أولاده الذين هلكوا ، قال ابن مسعود ﷺ : أحياهم الله بأعيانهم وآتاه مثلهم في الدنيا ، وروى أبو صالح عن ابن عباس ﷺ قال : كانت امرأته ولدت له سبع بنين وسبع بنات ، وقال السُّدي : ردّ الله عليه أهله في الجنة وأصاب امرأته فجاءت بمثلهم في الدنيا ، وقال مجاهد : آتيناه ثواب أهله في الدنيا في الجنة ومثلهم في الدنيا ، والأول أصح »[٢] ، ويقصد به قول ابن مسعود ﷺ الذي رجّحه على قول صحابي كابن عباس وكذلك التابعين .

وفي قوله تعالى ﴿ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ (الزخرف:٦١) ، قال الرسعني : « قوله تعالى ﴿ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ ﴾ ، قال الحسن ، وسعيد بن جبير : الضمير في (وإنه) للقرآن ، وقال ابن عباس والجمهور : الضمير لعيسى عليه السلام ، وهو الصحيح »[٣].

١١- تقديم أقوال كبار الصحابة على غيرهم في معظم التفسير ، وكذلك تقديمه أقوالهم على أقوال التابعين والمفسرين مراعياً بذلك الترتيب الزمني ، إلا في مواطن محدودة يُقدّم فيها قول التابعين ، وما سبق من الأمثلة يوضح ذلك .

---

(١) رموز الكنوز ٣٤٨/٥ ، ٣٤٩ ، وانظر الأقوال في قوله تعالى ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَـٰهُ ءَايَـٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾ (الأعراف:١٧٥) ، رموز الكنوز ٣٠٣/٢ وما بعدها .

(٢) المصدر السابق ٦٥٤/٤ .

(٣) المصدر السابق ١٣٨/٧ .

١٢- يُبدي الرسعني رأيه ويدلي بدلوه بعد ذكره أقوال الصحابة رضي الله عنهم، وهو ما يثبت قوة شخصيته العلمية وأنه لم يكن مجرد ناقل للأقوال، كما يظهر من الأمثلة الآتية :

ففي قوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴾ (الأعراف:١٥٢)، يقول الرسعني : «قوله تعالى ﴿ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ ، قال ابن عباس : هي الجزية ، والذى يظهر لي أن المراد بالذلة ما لابسهم من العار والشنار بسبب عبادة العجل ، فإنه حين سُقِط في أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا ، ذلوا واستحيوا لقبيح ما ارتكبوه»[(١)].

وفي قوله تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾ (الرعد:٢٢)، يقول الرسعني : «قوله تعالى ﴿ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾ ، قال ابن عباس : يريد الصلوات الخمس والزكاة ، والأظهر في نظري : القول بالعموم في الإنفاق وفرضه ، فقوله (سرًّا) يتقيد بالنفل ، فإنه أفضل ، وقوله (علانية) يتقيد بالفرض لشرعية إظهاره ، نفياً للتهمة»[(٢)].

١٣- كثرة استدلاله بأقوال ابن عباس ﷺ فلا تكاد تمرّ صفحات من التفسير إلا وتجد قولاً له ، وهذا ليس أمراً غريباً فهو حِبْرُ الأمة وتُرجمان القرآن الكريم ، حيث دعا له النبي ﷺ بقوله : (اللهم فقهه في الدين)[(٣)]، وقد ظهر هذا واضحاً في الأمثلة المتقدمة .

---

(١) رموز الكنوز ٢٦٨/٢ بتصرف .

(٢) المصدر السابق ٤٧٦/٣ ، وانظر : ١٠٦/٤ .

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الوضوء عن ابن عباس ، باب وضع الماء عند الخلاء برقم : ١٤٣ ، وهناك رواية أخرى في البخاري أيضاً ، (اللهم علّمه الحكمة) ، كتاب فضائل الصحابة ، باب ذكر ابن عباس رضي الله عنهما برقم : ٣٥٤٦ ، ومسلم عنه في كتاب فضائل الصحابة ، باب فضائل عبد الله بن عباس رضي الله عنهما برقم : ٢٤٧٧ .

وإن كان لابدّ من كلمة في خاتمة هذه الفقرة فإن ما يؤاخذ عليه الرسعني هو عدم مراعاته ترتيب الأقوال أحياناً كتقديمه أقوال التابعين على الصحابة ، وكذلك عدم نسبته أقوال الصحابة لمصادرها فضلاً عن ذكره أقوال الصحابة دون ذكر أسمائهم ويكتفي بـ (قيل) وبعد الرجوع إلى كتب التفسير بالمأثور وجدت قسماً من هذه الأقوال منسوبة للصحابة ، كما في المثال الآتي :

ففي قوله تعالى ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴾ (الرعد:٢٩)، ذكر أقوالاً عديدة ونسبها لقائليها ثم قال : «وقيل : (طوبى) اسم الجنة بالحبشية»[١]، وهذا القول منسوب إلى ابن عباس كما جاء في بعض كتب التفسير[٢].

رابعاً : تفسير القرآن بأقوال التابعين[٣]

من المعلوم عند فقد الأثر عن الصحابة في التفسير فإن أكثر ما يطمئن إليه القلب النظر في أقوال التابعين ؛ لأنهم رأوا الصحابة رضي الله عنهم وتلقوا عنهم ، والصحابة شهدوا الوحي وعاشوا أحداثه ، وكانوا أول المتلقين عن رسول الله ﷺ ، كما أن التابعين لهم من الفصاحة والبلاغة بعد رسول الله ﷺ وصحبه الكرام ما يجعلهم في المقدمة خصوصاً مع ما أُوتوا من الفهم بالقرآن الكريم ومعرفة أحكامه ، فلهذه الأسباب مجتمعة قيل : « إذا لم تجد التفسير في القرآن ولا في السنة ، ولا وجدته عن الصحابة ، فقد رجع كثير من الأئمة في ذلك إلى أقوال التابعين»[٤]، «ومن تأمل كتب الأئمة ومن بعدهم وجدها مشحونة بالاحتجاج بتفسير التابعي»[٥]، وخلاصة القول في حكم تفسير

---

(١) رموز الكنوز ٤٨٣/٣ .

(٢) جامع البيان للطبري ١٤٦/١٣ ، زاد المسير لابن الجوزي ٣٢٨/٤ .

(٣) التابعي هو : مَنْ صحب الصحابي ، وواحده تابع وتابعي ، انظر : مقدمة ابن الصلاح ٤٤٤ .

(٤) مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية ٨٤ .

(٥) إعلام الموقعين لابن القيم ٤١٢/٤ .

التابعي أنه يجب الأخذ به إن كان مما لا مجال للرأي فيه والاجتهاد ، وكذلك إن أجمعوا على رأي فلا تتعداه إلى غيره ، وقد اختلفت الآراء بحكم تفسير التابعي فذهب الحنابلة والشافعية إلى وجوب الأخذ بقوله إن لم يخالفه فيه صحابي ولا تابعي ، ونُقل عن الإمام أحمد روايتان في ذلك ، رواية بالقبول ، ورواية بعدم القبول[1] ، واختار بعضهم المنع فقال شعبة بن الحجاج وغيره : « أقوال التابعين في الفروع ليست حجة ، فكيف تكون حجة في التفسير »[2] ؟ ، بينما ذهب معظم المفسرين إلى الأخذ بقول التابعي ؛ لأنهم تلّقوا غالب تفسيرهم عن الصحابة ، فهذا مجاهد يقول : « عرضت المصحف على ابن عباس ثلاث عرضات من فاتحته إلى خاتمته ، أُوقفه عند كل آية منه وأسأله عنها »[3].

والخلاصة في هذا أن عموم أقوالهم يُستأنس بها ولا يجب الأخذ بها إلا إذا كانت مما لا مجال للرأي فيه[4]، أو أجمعوا على شيء فلا يُرتاب في كونه حُجّة ، فإن اختلفوا فلا يكون قول بعضهم حُجّة على بعض ، ولا على من بعدهم[5] ، وهذا الذي يطمئن إليه القلب وتميل إليه النفس .

والذي يهمنا في هذا المبحث هو كيف تعامل الرسعني مع أقوال التابعين واستدل بها قبولاً وترجيحاً ، فضلاً عن مجالات الاستدلال بها ، وقد أجملت الإجابة كل هذه التساؤلات بالنقاط التالية :

١- اعتمد الرسعني على أقوال معظم علماء التابعين كمجاهد ، وشعبة ، والحسن البصري ، وسفيان الثوري ، وابن سيرين ، وقتادة مولى ابن عباس ،

---

(١) إعلام الموقعين ٤/٤١٢ ، التفسير والمفسرون للذهبي ١/١١٧ .

(٢) مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية ٨٥ .

(٣) المصدر السابق ٨٤ ، ونقل أقوالاً أخرى اكتفيت بأحدها .

(٤) مما لا مجال للرأي فيه يقصد به : ما كان له حكم المرفوع كأسباب النزول والحديث عن اليوم الآخر ، فهنا لابدّ فيه من السماع المرفوع إلى الرسول ﷺ .

(٥) مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية ٨٥ ، والإتقان للسيوطي ٢/٤٥٩ ، والتفسير والمفسرون للذهبي ١/١١٧، ١١٨ .

والسُّدّي ، والشعبي ، فلا تكاد تمرّ ببضع صفحات من التفسير إلا وتقرأ أسماءهم وأقوالهم .

٢- تنوّعت نقولات الرسعني عن التابعين ، فكان ينقل عنهم في مجال الأحكام والفقه ، والقراءات ، وأسباب النزول ، وبيان معاني الآيات ، والمفردات ، وسيأتي الحديث عن نقله أسباب النزول والقراءات عن التابعين لمباحث خاصة ؛ لما لهذا الموضوع من أهمية تقتضي التفصيل فيها .

٣- مراعاته الترتيب في تأخير أقوال التابعين عن أقوال الصحابة ، وهذا في غالب التفسير إلا في بعض الأحيان قدّم أقوال التابعين على أقوال الصحابة وهو ما يؤاخذ عليه ـ كما أسلفت ـ ويمكن الوقوف على أمثلة هذا التصرف منه في الآتي :

ففي قوله تعالى ﴿ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴾ (الرحمن:٣٧) ، قال الرسعني : « ﴿ كَٱلدِّهَانِ ﴾ جمع دُهن ، قال عطاء بن أبي رباح : كعصير الزيت يتلّون في الساعة ألواناً ، وقال ابن عباس : الدهان : الأديم الأحمر »[(١)].

وفي قوله تعالى ﴿ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا ﴾ (النازعات:٢) ، قال الرسعني : « وقال مجاهد : هو الموت ينشط النفوس ، وقال ابن عباس : هي الملائكة تنشط أرواح المؤمنين بسرعة »[(٢)].

٥- يرجع الرسعني إلى أقوال التابعين في بيان مفردات وألفاظ القرآن الكريم ، كما في الأمثلة الآتية :

ففي قوله تعالى ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴾ (النساء:٨٥) ، قال الرسعني : « قال قتادة : المقيت : الحفيظ »[(٣)].

وفي قوله تعالى ﴿ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴾ (القلم:٢٥) ، قال الرسعني : « الحرد في اللغة يكون بمعنى : القصد ، وهو قول قتادة والحسن ومجاهد »[(٤)].

---

(١) رموز الكنوز ٥٦٤/٧ .
(٢) المصدر السابق ٤٦٤/٨ .
(٣) المصدر السابق ٥٧٥/١ .
(٤) المصدر السابق ٢٣٣/٨ .

٦- استشهد الرسعني بأقوال التابعين في المسائل الفقهية، كما في الأمثلة الآتية.

ففي قوله تعالى ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ ﴾ (النساء:٢٣)، قال الرسعني: «اختلفت الرواية عن الإمام أحمد رضي الله عنه في مقدار الرضاع المحرّم، فنُقل عنه أنها رضعة واحدة، وهو قول الحسن، والنخعي، والزهري، والثوري، ونُقل عنه أنها ثلاث رضعات»[(١)].

وفي قوله تعالى ﴿ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ﴾ (النساء:٤٣)، قال الرسعني: «ذهب الإمام أحمد إلى أن التيمم ضربة واحدة للوجه والكفين، وهو قول علي وابن عباس، وعمار، وسعيد بن المسيّب، وعطاء، وعكرمة، والأوزاعي»[(٢)]، ثم ذكر أقوالاً أخرى.

٧- يرجع الرسعني إلى أقوال التابعين لبيان معنى الآية عموماً وإيضاح مفهومها الذي تدل عليه، ولعل نظرة سريعة على أي جزء من التفسير تثبت انتشار هذه الأقوال بين جنبات الكتاب كما في الأمثلة الآتية:

ففي قوله تعالى ﴿ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ (آل عمران:٥٥)، قال الرسعني: «قال قتادة والربيع والشعبي: هم أمة محمد؛ لأنهم صدّقوا بنبوته، وأنه روح الله وكلمته»[(٣)].

وفي قوله تعالى ﴿ لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴾ (آل عمران:١١٣)، يقول الرسعني: «﴿ يَتْلُونَ ﴾

---

(١) رموز الكنوز ٤٦٧/١ بتصرف، وانظر تفصيل المسألة في المغني لابن قدامة ١٣٤/١١، ١٣٥.

(٢) المصدر السابق ٥٢٢/١، وانظر تفصيل المسألة في المغني لابن قدامة ٣١٥/١.

(٣) المصدر السابق ١٩٦/١.

بمعنى يقرؤون كتاب الله ، ﴿ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ ﴾ ساعاته ، قال السُّدّي : ﴿ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ ﴾ ، جوف الليل ، وروى سفيان عن منصور : أنها ما بين المغرب والعشاء ، وقال قتادة : هي ساعات غير معينة »[1] .

٨- ترجيحه لقول التابعي على قول الصحابي في معرض بيانه للآيات ومفرداتها ، كما في المثال الآتي :

ففي قوله تعالى ﴿ وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌ ﴾ (النساء:١٨) ، يقول الرسعني : « قوله تعالى ﴿ وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ ، قال ابن عباس : يريد الشرك ، وقال أبو العالية ، وسعيد بن جبير : النفاق ، والأظهر في نظري أنها سيئات المسلمين ؛ لأن الكلام في الزانين والإعراض عنهما ، وهو قول سفيان الثوري ، واحتج بقوله : ﴿ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌ ﴾ »[2] ، وتقديم الرسعني وترجيحه قول تابعي لعله ثمرة الخلاف في عدم حجية قول الصحابي وعدم إلزامه فيما كان للرأي والاجتهاد فيه مجال ـ كما سبق ـ

٩- محاولته التوفيق بين أقوال التابعين أو أقوال الصحابة والتابعين والجمع بينهما ، كما في الأمثلة الآتية :

ففي قوله تعالى ﴿ إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا ﴾ (الفتح:١) ، يقول الرسعني : « قال الشعبي : هو فتح الحديبية ، وقال الزهري : ولم يكن فتح أعظم من فتح الحديبية ، وقال السُّدّي : هو فتح مكة ، وقال مجاهد : إنه فتح خيبر ، ثم قال الرسعني معقباً على هذه الأقوال : والذى يقتضيه النظر الصحيح والبحث المستقيم : عموم ذلك في هذه الأقوال وغيرها ، وأنه بشارة للنبي ﷺ والمسلمين بما قضى الله تبارك لهم في الظهور والاستعلاء بما سيفتح عليهم من مكة وغيرها »[3] .

---

(١) رموز الكنوز ١/٢٧٠ .

(٢) المصدر السابق ١/٤٥٦ .

(٣) المصدر السابق ٧/٢٨٩ ، ٢٩٠ بتصرف .

وفي قوله تعالى ﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴾ (الرحمن:٧) ، قال الرسعني : «قوله تعالى ﴿ وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴾ ، لينتصف بعض الناس من بعض ، قال الضحاك : هو الميزان ذو اللسان والكفتين ، وقال مجاهد وقتادة والسُّدّي : المراد بالميزان ، العدل ، ثم عقّب الرسعني قائلاً : والعدل شامل لجميع الأقوال ، وبه تقدير الأشياء ووزنها ، وتمييز باطلها من حقها ، فالمراد بالميزان على هذا : كل ما تُعرف به المقادير من ميزان ومكيال ومقياس وغير ذلك»[١] .

وفي قوله تعالى ﴿ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴾ (الحجر:١٨)، يقول الرسعني : «أي ، لحقه كوكب مضيء ، قال ابن عباس رضي الله عنه : يحرق ويجرح ويخبل ولا يقتل ، وقال الحسن : يقتل : وعندي أنه لا تنافي بين القولين ، فإنه عذاب يرمون به ، فمنهم من يستأصله ويهلكه ، ومنهم من يُعذّبه ولا يهلكه بالكلية»[٢].

١٠- يُعقِّب الرسعني أحياناً على أقوال التابعين موضحاً أو موجهاً للمعنى ؛ مما يدلل على شخصيته العلمية وتصرفه في الأقوال وليس مجرد نقلها ، كما يظهر في الأمثلة الآتية :

ففي قوله تعالى ﴿ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴾ (الرحمن:٤٨)، قال الرسعني : «ثم وصف الجنتين فقال ﴿ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴾ ، يجوز أن يكون جمع فَنَن ، وهو الغصن المستقيم طولاً ، ويجوز أن يكون جمع فنّ ، وهو الضرب ، فإن أريد الأول : وهو قول مجاهد ، والضحاك ، وعكرمة وغيرهم كان المعنى : ذواتا أغصان متشعبة مثمرة مورقة ، لتمتد ظلالها وتكثر ثمارها ، وإن أُريد الثاني : وهو قول سعيد بن جبير ، كان المعنى : ذواتا ضروب وأصناف من النعم ، المستلذة المشتهاة»[٣].

---

(١) رموز الكنوز ٥٤٧/٧ .

(٢) المصدر السابق ٥٩٣/٣ .

(٣) المصدر السابق ٥٦٨/٧ بتصرف .

وفي قوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ﴾(النساء:١٣٦)، قال الرسعني : «قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ ، خطاب للمسلمين في قول الحسن ، ولأهل الكتابين في قول الضحاك ، وللمنافقين في قول مجاهد ، ثم عقّب الرسعني موجهاً هذه الأقوال فقال : فالمعنى على القول الأول : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ ﴾ أي : دوموا على إيمانكم ، كما تقول للقائم قم حتى آتيك ، وعلى القول الثاني : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ بالتوراة وموسى ، والإنجيل وعيسى ، ﴿ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ محمد وما جاء به من القرآن ، وعلى القول الثالث : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ بألسنتهم ، ﴿ ءَامِنُواْ ﴾ بقلوبكم بوحدانية الله ورسالة محمد ﷺ»[1] .

١١- ردّه أقوال بعض التابعين وعدم القبول بها ؛ مما يدل على أن الرسعني لم يكن مجرد ناقل للأقوال ، وإنما يُمحِّص الأقوال ويوجهها ويوضح معناها وأحياناً لا يقبلها ، كما في الأمثلة الآتية :

ففي قوله تعالى ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴾ (الدخان:٣) ، قال الرسعني : «قال عكرمة : في ليلة النصف من شعبان ، وهذا بعيد من وجهين ، أحدهما أنه خلاف ما عليه عامة أهل العلم ، والثاني : أنه يناقض قوله تعالى ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ ﴾ (البقرة:١٨٥) ، وقوله تعالى ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴾ (القدر:١)»[2] .

وفي قوله تعالى ﴿ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴾ (العلق:١٩) ، قال الرسعني : «ومن مستبعد التفسير قول زيد بن أسلم : اسجد يا محمد ، واقترب أنت يا أبا جهل من النار»[3].

١٢- ينقل أحياناً أقوال التابعين دون تعقيب عليها فكأنه يرتضي تلك الأقوال ، كما في الأمثلة الآتية :

---

(١) رموز الكنوز ١/٦٤٤ ، ٦٤٥ .
(٢) المصدر السابق ٧/١٥٩ .
(٣) المصدر السابق ٨/٦٨٧ .

ففي قوله تعالى ﴿ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ (الأعراف:١٥٧) ، قال الرسعني : « قال قتادة : يعني التشديد الذي كان عليهم في الدين ، وقال سعيد بن جبير : شدة العبادة »[١] .

وفي قوله تعالى ﴿ وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ ﴾ (إبراهيم:٤٦)، قال الرسعني : « ﴿ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ ﴾ أي : مكتوب عنده مكرهم ، وهو مجازيهم عليه بمكر هو أعظم منه ، وهذا معنى قول الحسن ، وقال قتادة : المعنى ، وعند الله جزاء مكرهم »[٢] .

١٣- نقل أقوال التابعين دون الإشارة إلى مصادرها وسندها ، ولعل هذا من باب الاختصار الذي يميل إليه الرسعني في تفسيره ، والأمثلة التي سبقت خير دليل على ذلك .

١٤- الاعتماد على أقوال التابعين في مجال القصص القرآني أو بيان غريب الألفاظ والنقل عنهم ، كما في الأمثلة الآتية :

ففي قوله تعالى ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴾ (الكهف:٩) ، قال الرسعني : « الكهف الغار الواسع في الجبل ، وأما الرقيم ، فقال الحسن : هو اسم الجبل ، وقال قتادة اسم القرية التي خرجوا منها ، وقال سعيد بن جبير : هو اسم كلبهم »[٣].

وفي قوله تعالى ﴿ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴾ (مريم:٢٢) ، يقول الرسعني : « واختلفوا في مدة حملها فقال الحسن : حملت تسع ساعات ووضعت من يومها ، وروي عن سعيد بن جبير : أنها حملت تسعة أشهر »[٤].

---

(١) رموز الكنوز ٢/٢٧٩ .
(٢) المصدر السابق ٣/٥٦٤ ، ٥٦٥ .
(٣) المصدر السابق ٤/٢٤٦ .
(٤) المصدر السابق ٤/٤٠٥ ، ٤٠٦ بتصرف .

١٥- عناية واهتمام الرسعني بالنقل عن علماء أهل البيت رضي الله عنهم ، كما في الأمثلة الآتية :

ففي قوله تعالى ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (آل عمران:١٨)، قال الرسعني : « قال جعفر الصادق ـ رحمه الله ـ إنما كرّر ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ ؛ لأن الأولى وصف وتوحيد ، والثانية رسم وتعليم ، أي قولوا : لا إله إلا هو »[١] .

وفي قوله تعالى ﴿ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴾ (الرعد:١٣) ، قال الرسعني : « قال أبو جعفر الباقر عليه السلام : الصواعق تصيب المسلم وغير المسلم ، ولا تصيب ذاكراً »[٢].

وفي قوله تعالى ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾ (الرحمن:٦٠) ، يقول الرسعني : « قال محمد بن علي ابن الحنفية ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾ ، هي مسجّلة للبرّ والفاجر »[٣].

* * *

(١) رموز الكنوز ١٤١/١ ، وانظر كذلك : ٢٤٩/١ ، و ٣٩٨ وغيرها .

(٢) المصدر السابق ٤٥٩/٣ .

(٣) المصدر السابق ٥٧٤/٧ ، وقد ذكر الرسعني هذا الأثر بسنده .

openkandil.com

المبحث الثاني

منهجه في القراءات والاستعانة بها في التفسير

القراءات جمع قراءة ، وهي في الأصل مصدر « قرأ » يقال : قرأ فلان ، يقرأ ، قراءة[1]، وفي اصطلاح علماء القراءات هي : « علم يُعرف به كيفية النطق بالكلمات القرآنية ، وطريق أدائها اتفاقاً واختلافاً مع عزو كل وجه لناقله »[2].

أو هي : « مذهب يذهب إليه إمام من أئمة القراءة مخالفاً به غيره في النطق بالقرآن الكريم مع اتفاق الروايات والطرق عنه ، سواء أكانت هذه المخالفة في نطق الحروف أم في نطق هيئاتها »[3].

إذاً هي الصورة التي جاء عليها ضبط مفرد من ألفاظ القرآن بحسب ما سمع منه ونقل بالتواتر ، مما يرجع إلى تحقيق ذات الحرف ، أو ما يرجع إلى شكل النطق به ، أو ما يرجع إلى حركته[4].

إن ضابط القراءات كما بيّن ابن الجزري ، « هو كل قراءة وافقت العربية ولو بوجه ، ووافقت أحد المصاحف العثمانية ولو احتمالاً ، وصحّ سندها فهي القراءة الصحيحة التي لا يجوز ردّها ، ولا يحلّ إنكارها ، بل هي من الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن ووجب على الناس قبولها ، سواء كانت عن الأئمة السبعة أم عن العشرة ، أم عن غيرهم من الأئمة المقبولين ، ومتى اختلّ ركن

---

(١) القاموس المحيط للفيروزآبادي ٤٩ .

(٢) البدور الزاهرة ، عبد الفتاح القاضي ٧ (دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط١ ، ١٤٠١هـ ، ١٩٨١م) .

(٣) مناهل العرفان للزرقاني ٣٣٢/١ .

(٤) التفسير ورجاله لابن عاشور ٣٣ .

من هذه الأركان الثلاثة : أُطلق عليها ضعيفة أو شاذة أو باطلة ، سواء كانت عن السبعة أو عمّن هو أكبر منهم ، هذا هو الصحيح عند أئمة التحقيق من السلف والخلف»[1]، ولأهمية القراءات فهي لها اتصالاً قويًّا بالتفسير وارتباطاً وثيقاً به ، و« كان المفسرون الأولون مأخوذين بلزوم الالتفات إلى القراءات والاعتماد عليها ، حتى إن رجحان قراءة من القراءتين يرجِّح أحد المعنيين المفروضين في تفسير الآية»[2].

وقد كان الرسعني واحداً من هؤلاء الأعلام الذين لهم الباع الطويل في علم القراءات فهذا تفسيره الذي أشار فيه إلى معظم القراءات ، وتلك مؤلفاته[3] ، وأسانيد إجازاته بالقراءات[4] وتتلمذه على الإمام العكبري[5] وقراءته كتاب المستنير لابن سِوار[6] كل هذا يعلي من قيمة تفسير الرسعني كمصدر مهم من مصادر القراءات وتوجيهها ، فضلاً عن ثرائه بذكر القراءات الشاذة ونسبتها لأصحابها ، كما لا تخفى عباراته المتكررة في التفسير بأنه قرأ على فلان من رواية كذا ، وهذا كثير بين ثنايا تفسيره[7].

---

(١) النشر في القراءات العشر ، محمد بن محمد الدمشقي المعروف ، بابن الجزري ١/٩، (تصحيح : علي محمد الضباع ، المكتبة التجارية ، مصطفي الحلبي ، القاهرة).

(٢) التفسير ورجاله لابن عاشور ٣٥ .

(٣) مثل درة القارئ في الفرق بين الضاد والظاء .

(٤) أشار الرسعني إلى هذا فقال في تفسيره : «وقرأت لباقي العشرة من جميع طرقهم اللاتي خرّجها الإمام أبا طاهر ـ هكذا وردت في الكتاب ـ أحمد بن علي بن عبيد الله ابن سوار المقرئ ـ رحمه الله ـ في كتابه «المستنير» وقرأت بجميع ما فيه على شيخنا العلاّمة أبي البقاء عبد الله بن الحسين اللغوي تلاوة . . » ، انظر رموز الكنوز ٢١٣/٧ ، ٢١٤ ، وكثيراً ما أشار إلى قراءته على شيخيه أبي البقاء العكبري ، وعثمان الياسري ، انظر : رموز الكنوز ٤٦٨/٢ ، ٥٨٢ ، ٦٠/٣ ، ١٤٨ ، ٤/ ٢٣٢ .

(٥) سبقت ترجمته ص ٧٠ .

(٦) سبقت ترجمته ص ١٤١ .

(٧) انظر : رموز الكنوز ٦٥/٢ ، ١٦١ ، ٤٥٩/٢ ، ٣/ ٢٧٢ .

بعد هذه المقدمة يهمنا الآن الوقوف على منهج الرسعني في القراءات ومعرفة كيفية استفادته منها في تفسيره واستخدامها الاستخدام الأمثل لإثراء الآية تفسيراً ، وإيضاح معناها كما يجب ، ويمكن لنا أن نُجمل منهجه في القراءات بالنقاط الآتية مع الأمثلة .

١- يذكر الرسعني في تفسيره القراءات المتواترة ، والشاذة ، وينسبها في معظم الأحيان لأصحابها وأحياناً لا ينسبها ، والأمثلة التي ستأتي توضح هذا .

٢- تطرق الرسعني كثيراً في تفسيره إلى قراءات الصحابة[١]، والتابعين[٢]، وممن بعدهم[٣]، وقد أشار إلى أسمائهم عند ذكره القراءة ، كما في الأمثلة الآتية :

ففي قوله تعالى ﴿ وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴾ (إبراهيم:٤٦) ، قال الرسعني : «وقرأ عمر ، وعلي ، وابن مسعود ، وأُبي بن كعب رضي الله عنهم (وإن كاد) بالدال ، و(لَتزولُ) بفتح اللام الأول ورفع الثانية»[٤].

---

(١) كأبي بكر الصديق ٣٥٦/٦ ، وابن عباس ، وسعد بن أبي وقاص ٣٣٦/٢ ، وعائشة وفاطمة ٦٤١/٢ ، وأنس بن مالك ٢٢٧/٢، وزيد بن ثابت ٢٧/٣، وأبي الدرداء ٣٠٧/٣ ، وأبي هريرة ٤٨٢/٢ رضي الله عنهم .

(٢) كأبي العالية ٢٩٤/٣ ، وسعيد بن جبير ٣٤١/٢ ، والضحاك وعكرمة ٣٥١/٣ ، والزهري ٥٥٩/٣ ، والشعبي ٦٢٢/٢ ، وابن سيرين ٢٨٤/٢ ، والأعمش ٤٢٢/٢ ، والنخعي ٤١٩/٢ ، وعبد الرحمن السلمي ٤٣٠/٣ .

(٣) كعيسى بن عمر ٣٧٤/٢ ، وأبي المتوكل ٣٧٤/٢ ، والجحدري ٣٧٥/٢ ، وأبي الجوزاء ٩٨/٣ ، وأبي عمران الجوني ٥٣٣/٢ ، ومعاذ القارئ ٦١٧/٢ ، وابن السميفع ٦١٧/٢ ، ونوح القارئ ٣١٦/٣ وغيرهم رحمهم الله .

(٤) رموز الكنوز ٥٦٦/٣ ، وقرأ الكسائي (لَتزولُ) بفتح اللام الأولى وضم الثانية ، وقرأ الباقون بكسر الأولى وفتح الثانية ، وانظر هذه القراءة في الكشف عن وجوه القراءات السبع لمكي القيسي ٤٦/٢ ، ٤٧ .

وفي قوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ﴾ (الأنفال:٧٠) ، قال الرسعني : « قرأ الحسن ، ومجاهد ، وقتادة (أخذ) بفتح الهمزة والخاء ، يعني : أكثر مما أُخذ منكم من الفداء وأحلّ وأطيب»[١].

وفي قوله تعالى ﴿ وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ ﴾ (التوبة:١١٤) ، قال الرسعني : « وهي قوله تعالى ﴿ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓ ﴾ (مريم:٤٧) ، فعلى هذا يكون ضمير الفاعل في (وعدها) (إبراهيم) ، والضمير في (إياه) يعود إلى الأب ، ويؤيده قراءة الحسن ، وابن السميفع[٢] ، ومعاذ القارئ[٣] (وعدها أباه) بالباء المعجمة من تحت بنقطة واحدة»[٤].

٣- لم يستوعب الرسعني في تفسيره كل القراءات وإنما اقتصر في الغالب على ما يترتب عليه معنى جديد سواء أكان من حيث اللغة أو الإعراب أو تغييراً في الحكم الفقهي . . . إلخ ، وربما أشار أحياناً إلى بعض القراءات التي لم يترتب عليها معنى جديد ، كما في الأمثلة الآتية التي توضح ذلك .

ففي قوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ ﴾ (الأنفال:٧٠) ، لم يذكر قراءة في (الأسرى) أنها تقرأ بالجمع (الأُسارى) بضم الهمزة وفتح السين ، وهي قراءة الدوري عن أبي عمرو بن العلاء[٥].

---

(١) رموز الكنوز ٤٧٧/٢

(٢) هو : محمد بن عبد الرحمن بن السميفع ، أبو عبد الله اليماني ، انظر : ترجمته في غاية النهاية لابن الجزري ١٦١/٢ برقم : ٣١٠٦

(٣) هو : معاذ بن الحارث ، أبو الحارث ويقال أبو حليمة الأنصاري المدني ، المعروف بالقارئ ، روى عن نافع وابن سيرين ، توفي بالحرة سنة ٦٣هـ . انظر : ترجمته في غاية النهاية لابن الجزري ٣٠١/٢ ، ٣٠٢ برقم : ٣٦٢١ .

(٤) رموز الكنوز ٦١٧/٢ .

(٥) رموز الكنوز ٤٧٦/٢، ٤٧٧ ، وانظر هذه القراءة في الكشف عن وجوه القراءات السبع لمكي القيسي ٤٩٦/١، إتحاف فضلاء البشر ، أحمد بن محمد البنا ٨٤/٢ . (تحقيق دكتور محمد شعبان ، عالم الكتب ، بيروت ، ط١ ، ١٤٠٧هـ ، ١٩٨٧م)

وفي قوله تعالى ﴿ فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ (يوسف:٦٤) ، تطرق إلى قراءة لم يترتب عليها معنى جديد حيث قال الرسعني : « قوله تعالى (فالله خير حِفظاً) وقرأ أهل الكوفة إلا أبا بكر »حافظاً « بالألف »[١]، والقراءة الأولى بكسر الحاء وبدون ألف ، وهذا النوع أشار إليه قليلاً في تفسيره مقارنة بالذي قبله .

٤- اهتم الرسعني بذكر القراءات من حيث الأصول[٢]، والفَرش[٣]، وإن كان أكثر اهتمامه بفرش القراءات منه بأصولها ؛ لما يترتب عليها من المعاني الجديدة ، وسأشير لبعض الأمثلة التي تتعلق بأصول القراءات ، أما ما يتعلق بالفَرش وأمثلته ؛ فسيأتي لاحقاً توضيح ذلك ولا ضرورة للتكرار .

ففي قوله تعالى ﴿ وَلَوۡ دُخِلَتۡ عَلَيۡهِم مِّنۡ أَقۡطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُواْ ٱلۡفِتۡنَةَ لَأٓتَوۡهَا وَمَا تَلَبَّثُواْ بِهَآ إِلَّا يَسِيرٗا ﴾ (الأحزاب:١٤)، قال الرسعني : « قرأ نافع ، وابن كثير (لأتوها) بقصر الهمزة على معنى لجاؤوها ، وقرأ الباقون (لآتوها) بالمد على

---

(١) رموز الكنوز ٣/٣٧٥ ، وانظر هذه القراءة في الكشف عن وجوه القراءات السبع لمكي القيسي ٢/٦٤ .

(٢) هي : القواعد الكلية التي ينسحب حكم الواحد منها على الجميع غالباً ، مثل : الإدغام الكبير والصغير ، وميم الجمع ، والإمالة ، والراءات ، والمد والقصر ، والإبدال ، والوقف على أواخر الكلم ... إلخ ، انظر : كنز المعاني لمحمد بن أحمد الموصلي ٢٥٧ (مطبعة دار التأليف ، مصر ، ط١ ، ١٩٥٤م) ، ومعجم مصطلحات القراءات القرآنية ، دكتور عبد العلي المسئول ٨٦ (دار السلام ، القاهرة ، ط١ ، ١٤٢٨هـ ، ٢٠٠٧م)

(٣) هي : الأحكام الخاصة ببعض الكلمات القرآنية المتفق عليها أو المختلف فيها ، مما يتغير معناها غالباً ، وسُميّت فرشاً ؛ لأن المصنّفين يوردون هذه الكلمات منثورة ومفروشة في السور على حسب الترتيب المصحفي ، وقيل : لانتشارها ، وسمّى بعضهم الفرش فروعاً على مقابلة الأصول ، انظر : كنز المعاني لمحمد الموصلي ٢٥٧ ، ومعجم مصطلحات القراءات القرآنية ، دكتور عبد العلي المسئول ٢٦١، ٢٦٢ .

معنى : لأعطوها ، وزاد هذه القراءة حُسناً قوله تعالى (سئلوا) ، فإن الإعطاء مع السؤال يتناسب»[1]، ولا يخفى توجيهه للقراءة ، مما يدلل على أنه كان خبيراً بالقراءات .

وفي قوله تعالى ﴿ وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ۝ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ۝ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا ﴾ (الصافات:١-٣)، قال الرسعني : «قرأ أبو عمرو في إدغامه الكبير[2]، وحمزة بالإدغام فيهن ، وعِلّة الإدغام : مقاربة التاء هذه الحروف من حيث إنها وإياهنّ من طرف اللسان وأصول الثنايا ، ومن ترك الإدغام فلاختلاف المخارج»[3].

٥- كما أنه يعقد أحياناً فصلاً للقراءات فيقول (فصل) ثم يشرع بذكر القراءات[4]

٦- يختصر الرسعني ذكر أسماء جميع القرّاء عند نسبة القراءة إليهم ، وقد تنوع أسلوبه في هذا فتراه يقول : قرأ فلان وفلان وقرأ الباقون ، وأحياناً يشير إليهم بمدارسهم فيقول : وقرأ أهل الكوفة[5]، وقرأ الحرميان[6]،

---

(١) رموز الكنوز ١١٩/٦ ، وانظر كذلك ٣٢٢/٦ ، ٢٢٣/٧ ، ٢٠٧/٨ ، وانظر الكشف عن وجوه القراءات السبع لمكي القيسي ١٩٦/٢ .

(٢) هو : الذي يكون الأول من المثلين أو المتجانسين أو المتقاربين متحركاً ، وسُمي كبيراً لكثرة وقوعه أو لما فيه من الصعوبة ، وأما الإدغام الصغير : فهو الذي يكون الأول من الحرفين ساكناً . انظر : النشر لابن الجزري ٢٧٥/١ ، ومعجم مصطلحات القراءات القرآنية ، دكتور عبد العلي المسئول ٥٩، ٦٠ .

(٣) رموز الكنوز ٣٦٩/٦، وانظر كذلك ٥٨٥/٦ ، ٢١٢، ٢١٣ ، ٢١٢/٨، ٢١٣ وغيرها ، والمقصود بالإدغام هنا إدغام التاء مع الصاد ، ومع الزاي ، ومع الذال ، وانظر الكشف عن وجوه القراءات السبع لمكي القيسي ١٥٢/١ .

(٤) رموز الكنوز ٢١٩/١ ، وانظر كذلك ٣٤٩/٨ .

(٥) وهم : عاصم ، وحمزة ، والكسائي ، وخلف . انظر : كنز المعاني لمحمد الموصلي ٣٤ ، ومعجم مصطلحات القراءات القرآنية للمسئول ١٠٤ .

(٦) هما : نافع المدني ، وابن كثير المكي . انظر : كنز المعاني ٣٧ ، معجم مصطلحات القراءات القرآنية ١٦٧ .

أو أهل العراق[1]، وتارة يقول : وقرأ السبعة أو العشرة[2]، وربما يذكر أحياناً أسماء بعض القرّاء ، ولا يشير إلى الآخرين ، وهذا أمر متعارف عليه عند العلماء لأنه يدرك من مفهوم المخالفة ، كما في الأمثلة الآتية :

---

(١) أهل العراق هم : حمزة ، والكسائي ، وعاصم ، وأبو عمرو البصري ، ويعقوب وأصحابهم . انظر : معجم مصطلحات القراءات القرآنية ١٠٣ .

(٢) وهم :

١- **نافع المدني** : هو نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم الليثي أبو رويم ، ولد بأصفهان ، وأشهر رواته هما قالون وورش ، توفي بالمدينة المنورة سنة ١٩٩هـ ، ترجمته في معرفة القرّاء الكبار لشمس الدين محمد الذهبي ١/ ١٠٧ (تعليق : مجموعة ، الرسالة ، ط٢ ، ١٤٠٨هـ ، ١٩٨٨م)، وغاية النهاية لابن الجزري ٢/٣٣٠ .

٢- **ابن كثير المكي** : هو عبد الله بن كثير بن عمر بن عبد الله زاذان بن فيروز المكي ، ولد بمكة عام ٤٥هـ ، وأشهر رواته هم : البزي وقنبل ، توفي بمكة سنة ١٢٠هـ . ترجمته في معرفة القرّاء للذهبي ١/٨٦ ، غاية النهاية لابن الجزري ١/٤٤٣ .

٣- **أبو عمرو البصري** : هو زبان بن العلاء بن عمار بن العريان المازني التميمي البصري ، إمام البصرة ومقرئها ، ولد بمكة عام ٧٠هـ ، وأشهر رواته هم : الدوري ، والسوسي عن يحيى بن المبارك اليزيدي ، توفي بالكوفة سنة ١٥٤هـ . ترجمته في معرفة القراء للذهبي ١/١٠٠ ، غاية النهاية لابن الجزري ١/٢٨٨ .

٤- **ابن عامر الشامي** : هو عبد الله بن عامر بن يزيد تميم بن ربيعة اليحصبي ويُكنى بأبي عمرو ، وهو تابعي ، ولد عام ٨هـ ، وكان إمام أهل الشام ، وأشهر رواته هم : هشام وابن ذكوان ، توفي بدمشق سنة ١١٨هـ ، ترجمته في معرفة القراء للذهبي ١/٨٢ ، غاية النهاية لابن الجزري ١/٤٢٣ .

٥- **عاصم الكوفي** : هو عاصم بن أبي النَجُود ، وقيل اسم أبيه عبد الله ، كنيته أبو النجود ، ويكنى أبا بكر الأسدي ، وهو من التابعين ، أشهر رواته شعبة وحفص ، توفي بالكوفة سنة ١٢٧هـ ، وسيذكر الرسعني شعبة بكنيته أبي بكر كما سيأتي . ترجمته في معرفة القراء للذهبي ١/٨٨ ، غاية النهاية لابن الجزري ١/٣٤٦ .

٦- **حمزة الكوفي** : هو حمزة بن حبيب بن عمارة بن إسماعيل الكوفي ، إمام الناس بالقراءة في الكوفة بعد عاصم ، ولد عام ٨٠ هـ ، ومن أشهر رواته خلف وابن خلاد ، توفي بحلوان ـ مدينة في العراق ـ ، سنة ١٥٦هـ . ترجمته في معرفة القراء للذهبي ١/١١ ، غاية النهاية لابن الجزري ١/٣٤٦ .

٧- **الكسائي الكوفي** : هو علي بن حمزة بن عبد الله عثمان النحوي ، يُكنى بأبي الحسن ، ويُلقب بالكسائي ؛ لأنه أحرم في كِساء ، ولد في حدود عشرون ومائة ، وأشهر ==

ففي قوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ (النساء:١٤٥)، قال الرسعني : «قرأ أهل الكوفة «الدرك» بسكون الراء ، وقرأ الباقون بفتحها»[1].

وفي قوله تعالى ﴿ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴾ (الأعراف:١١٣) ، يقول الرسعني : «قرأ الحرميان ، وحفص (إن لنا) بهمزة واحدة مكسورة على الخبر ، وقرأ الباقون بالاستفهام (قالوا أئن لنا لأجراً)»[2].

وفي قوله تعالى ﴿ إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾ (الزمر:٧) ، قال الرسعني : «اختلف القراء

== رواته الليث وحفص الدوري ، توفي سنة ١٨٩هـ . ترجمته في معرفة القراء للذهبي ١٢٠/١ ، وهؤلاء هم الذين إن أُطلق عليهم لفظ القراء السبعة ، وإن أطلق العشرة فيراد بهم هؤلاء السبعة ويضاف إليهم الثلاثة وهم :

٨- **أبو جعفر المدني** : هو يزيد بن القعقاع المخزومي المدني ، ويكنى بأبي جعفر ، ويعد من التابعين ، وأشهر رواته عيسى بن وردان ، وسليمان بن جماز ، توفي سنة ١٣٠هـ . ترجمته في معرفة القراء للذهبي ٧٢/١ ، غاية النهاية لابن الجزري ٢٨٣/٢ .

٩- **يعقوب البصري** : هو يعقوب بن إسحاق بن زيد بن عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي البصري ، يُكنى بأبي محمد ، إمام القراءة في البصرة بعد أبي عمرو ابن العلاء ، أشهر رواته رويس ، ورَوح ، توفي سنة ٢٥٠هـ . ترجمته في معرفة القراء للذهبي ١٥٧/١ ، غاية النهاية لابن الجزري ٣٨٦/٢ .

١٠- **خلف العاشر** : هو خلَف بن هشام بن ثعلب الأسدي البزّار البغدادي ، يُكنى بأبي محمد ، ولد عام ١٥٠هـ ، وأشهر رواته إسحاق ، وإدريس ، توفي ببغداد سنة ٢٢٩هـ . ترجمته في معرفة القراء للذهبي ٢٠٨/١ ، غاية النهاية لابن الجزري ٢٧٢/١ .

(١) رموز الكنوز ٦٥٣/١ ، وانظر الكشف عن وجوه القراءات السبع لمكي القيسي ٤٠١/١ .

(٢) رموز الكنوز ٢٢٠/٢ ، وانظر الكشف عن وجوه القراءات السبع لمكي القيسي ٤٧٢/١ .

السبعة ، منهم من ضم الهاء ووصلها بواو[1]، ومنهم من اختلس الحركة[2]؛ لأن أصل الكلمة يرضاه ، ومنهم من أسكن الهاء[3] وقال : هي لغة»[4].

وفي قوله تعالى ﴿ خُشَّعًا أَبْصَـٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴾ (القمر:٧) ، يقول الرسعني : «قرأ أهل العراق إلا عاصماً (خاشعاً) بالألف وكسر الشين وتخفيفها ، وقرأ الباقون من العشرة بغير ألف وفتح الشين وتشديدها»[5].

وفي قوله تعالى ﴿ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴾ (الواقعة:٦٠) ، قال الرسعني : «وقرأ ابن كثير (قدرنا) بالتخفيف ، وهما لغتان بمعنى واحد»[6].

وكذلك في قوله تعالى ﴿ ذَٰلِكَ جَزَيْنَـٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَـٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴾ (سبأ:١٧) ، قال الرسعني : «وقرأ حمزة والكسائي وحفص (نجازي) بالنون وكسر الزاي وياء بعدها»[7]، ثم ذكر الآية التي فيها القراءة الأخرى وهي

---

(١) هم : ابن كثير المكي ، والكسائي ، وابن ذكوان قولاً واحداً ، والدوري في الوجه الثاني له ، انظر : الحجة لأبي علي الفارسي ٦/٩٠،٩١ ، وإتحاف فضلاء البشر لأحمد البنا ٢/٤٢٧ .

(٢) هم : عاصم ، ونافع ، وحمزة قولاً واحداً ، وهشام في الوجه الثاني له ، انظر الكشف عن وجوه القراءات السبع لمكي القيسي ٢/٢٣٦ ، الحجة لأبي علي الفارسي ٦/٩٠ ، ٩١ ، وإتحاف فضلاء البشر ٢/٤٢٧ .

(٣) وهم : السوسي قولاً واحداً ، والدوري وهشام بخلاف عنهما . انظر : الكشف عن وجوه القراءات السبع لمكي القيسي ٢/٢٣٦ ، الحجة ٦/٩٠ ، ٩١ ، وإتحاف فضلاء البشر ٢/٤٢٧ .

(٤) رموز الكنوز ٦/٥٢٦ بتصرف ، ولم أذكر تعليله وتوجيهه لهذه القراءات ؛ لأن الشاهد في كلمة السبعة ، وأنه لم يذكر القرّاء بأسمائهم .

(٥) رموز الكنوز ٧/٥١٣ ، وانظر الكشف عن وجوه القراءات السبع لمكي القيسي ٢/٢٩٧.

(٦) رموز الكنوز ٧/٦١٠ ، وانظر الكشف عن وجوه القراءات السبع لمكي القيسي ٢/٣٠٥ ، وقرأ الباقون بالتشديد .

(٧) رموز الكنوز ٦/٢٣٣ ، وانظر الكشف عن وجوه القراءات السبع لمكي القيسي ٢/٢٠٦ ، والباقون قرأوا بالياء ورفع الكفور على أنه نائب فاعل .

قوله تعالى ﴿ وَهَلْ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴾ ، دون أن يذكر أسماء من قرأ بها ، أما طريقة القراءة فتكون بالياء وذكرها بكتابة الآية بالياء دون أن يُعقّب بشيء .

٧- لا ينسب الرسعني ـ أحياناً ـ القراءة لأحد من القراء ، وإنما يشير إليها بصيغة المجهول فيقول : قُرِئ كذا ، كما في الأمثلة الآتية :

ففي قوله تعالى ﴿ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ (الأنفال:٦٠) ، يقول الرسعني : « وقُرئ (ومن رُبُط) بضم الراء والباء[١]، وسكون الباء أيضاً[٢]، جمع رباط »[٣].

وفي قوله تعالى ﴿ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴾ (يس:٦٧)، قال الرسعني : « وقُرِئ « مِضياً »[٤] ، مثل : الغُنى والغِنى »[٥].

٨- استخدام الرسعني للإحالات اختصاراً للكلام وخشية التكرار ، فيقول مثلاً : وسبق ذكره في سورة كذا ، أو ذكرنا ذلك بما سبق في سورة كذا ، كما في الأمثلة الآتية :

ففي قوله تعالى ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ﴾ (الكهف:٩٨) ، قال الرسعني : « وقرأ أهل الكوفة (دكاء) بالمد والهمزة من غير تنوين ، وقد سبق ذكره في الأعراف »[٦].

---

(١) تُنسب هذه القراءة للحسن ، وعمرو بن دينار ، وأبي حَيوة ، انظر : إتحاف فضلاء البشر لأحمد البنا ٨٢/٢ ، البحر المحيط ، محمد بن يوسف المعروف بأبي حيان ٣٤٤/٥ (دار الفكر ، بيروت ، ١٤١٢ هـ ، ١٩٩٢م) .

(٢) تُنسب هذه القراءة للحسن ، وأبي حَيوة ، انظر : البحر المحيط لأبي حيان ٣٤٤/٥.

(٣) رموز الكنوز ٤٥٨/٢ .

(٤) وهي قراءة أبي حَيوة ، وأحمد بن جبير الأنطاكي عن الكسائي ، بكسرها اتباعاً لحركة الضاد ، انظر : البحر المحيط لأبي حيان ٧٩/٩ .

(٥) رموز الكنوز ٣٥٦/٦ .

(٦) المصدر السابق ٣٧٣/٤ ، والآية (١٤٣) من سورة الأعراف ، وهي في رموز الكنوز ٢٤٩/٢ ، وانظر هذه القراءة في الكشف عن وجوه القراءات السبع لمكي القيسي ٨١/٢ .

وفي قوله تعالى ﴿ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ (الواقعة:٤٧)، قال الرسعني : «وقرأ نافع والكسائي (إنا) على الخبر ، والباقون بهمزتين ، وحققها ابن عامر وعاصم وحمزة ، وفصَل بينهما بألف هشام ، وحقّق الأولى وليّن الثانية ابن كثير وأبو عمرو ، وزاد أبو عمرو الفصل بألف وقد أشرنا إلى علة ذلك في أوائل الرعد»[1].

٩- يجمع بين الآيات الشبيهة بالقراءة الأخرى ، أو عند ذكره قراءة ما يجمع معها الآيات الأخرى التي تقرأ بالقراءة نفسها ؛ مما يدلل على سعة علمه في علم القراءات وتبحره الواسع فيه ، كما في الأمثلة الآتية :

ففي قوله تعالى ﴿ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ ﴾ (النساء:١١) ، وقال الرسعني : «قرأ حمزة والكسائي (فلإمه) بكسر الهمزة ، ومثله ﴿ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا ﴾ (القصص:٥٩)، و ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ﴾ (النحل:٧٨)»[2] .

وفي قوله تعالى ﴿ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴾ (الكهف:٨١) ، يقول الرسعني : «قرأ نافع وأبو عمرو (يبدّلهما) بالتشديد ، ومثله في التحريم[3]، ونون والقلم[4] وخفف ذلك كله الباقون»[5].

١٠- لم يكن الرسعني مجرد ناقل للقراءات فيوردها دون توجيه أو تعقيب ، وإنما تعامل مع القراءات في تفسيره بقلم العالم المتبحر في هذا العلم بما يعرضه من قراءات متواترة أو شاذة ، البصير بما يوجهه ، والعارف

---

(١) رموز الكنوز ٦٠٦/٧ ، والآية (٥) من سورة الرعد ، وهي في رموز الكنوز ٤٤٢/٣ ، وانظر الكشف عن وجوه القراءات السبع لمكي القيسي ٢٠/٢ .

(٢) رموز الكنوز ١/ ٤٣٨ ، وانظر الكشف عن وجوه القراءات السبع لمكي القيسي ٣٧٩/١ .

(٣) قوله تعالى ﴿ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ ﴾ (التحريم:٥) .

(٤) قوله تعالى ﴿ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ ﴾ (القلم:٣٢) .

(٥) رموز الكنوز ٣٤٢/٤، وانظر الكشف عن وجوه القراءات السبع لمكي القيسي ٧٢/٢.

بما يترتب على تلك القراءات من معانٍ مختلفة ، ومن توجيهه القراءة لغة ما يأتي :

ففي قوله تعالى ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ ﴾ (الأنعام:١٣٦)، قال الرسعني : «وقرأ الكسائي (بزُعمهم) بضم الزاي ، وهي لغة بني أسد ، وفتحها الباقون ، وبعض قيس يكسرون الزاي»[(١)].

وفي قوله تعالى ﴿ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ ﴾ (الرعد:٤) ، قال الرسعني : «وقرأ أبو رُزين[(٢)]، وأبو عبد الرحمن السُّلمي ، وقتادة (صُنوان) بضم الصاد ، وهي لغة لتميم»[(٣)].

١١- كما لا يخفى توجيهه النحوي والصرفي للقراءات وما يترتب عليها من المعاني المختلفة ، كما في الأمثلة الآتية :

ففي قوله تعالى ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ﴾ (آل عمران:١٧٨) ، قال الرسعني : «قرأ الجمهور (يحسبن) بالياء ، وقرأ حمزة بالتاء ، فمن قرأ بالياء أسند الفعل إلى الذين كفروا ، أو إلى الذين (يبخلون) فهم الفاعلون ، ومن قرأ بالتاء فعلى الخطاب للنبي ﷺ فهو الفاعل»[(٤)].

وفي قوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ (يونس:٢٣)، قال الرسعني : «واختلف القراء في قوله ﴿ مَّتَٰعَ ﴾ فقرأ

---

(١) رموز الكنوز ٢/ ١٣، ١٤ ، وانظر الكشف عن وجوه القراءات السبع لمكي القيسي ١/ ٤٥٣ .

(٢) هو : مسعود بن مالك ، ويقال : ابن عبد الله أبو رُزين رحمه الله ، توفي سنة ٨٥ هـ ، انظر : ترجمته في غاية النهاية لابن الجزري ٢/ ٢٩٦ برقم : ٣٥٩٧ .

(٣) رموز الكنوز ٣/ ٤٣٩ .

(٤) المصدر السابق ١/ ٣٧٣ ، وانظر الكشف عن وجوه القراءات السبع لمكي القيسي ١/ ٣٦٥ ، وانظر : هذا التوجيه في التبيان في إعراب القرآن لأبي البقاء العكبري ١/ ٢٤٦ (دار الفكر ، بيروت ، ١٤٣١هـ ، ٢٠١٠م) .

حفص عن عاصم بالنصب ، وقرأ الباقون بالرفع ، فمن رفع قال (بغيكم) مبتدأ ، و ﴿ مَّتَٰعَ ﴾ خبره ، وقيل : خبر ﴿ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ﴾ ، على معنى بغيكم عائد على أنفسكم راجع إليها ، و﴿ مَّتَٰعَ ﴾ خبر بعد خبر ، أو هو خبر مبتدأ محذوف تقديره : هو متاع الحياة الدنيا ، ومن نصب فعلى المصدر ، والمعنى : يتمتعون متاع الحياة الدنيا »[1].

وفي قوله تعالى ﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾ (النمل:٢٢)، قال الرسعني : « وقرأ عاصم بفتح الكاف ، وهما لغتان والفتح أقيس ؛ لأن اسم الفاعل منه ماكث ، قال تعالى ﴿ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴾ (الكهف:٣) ، وقال تعالى ﴿ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴾ (الزخرف:٧٧) ، وهذا يدل ظاهراً أنه من (فَعَلَ) ـ بالفتح ـ لأن مكان الفاعل من فَعُلَ ـ بالضم ـ فعيل ، نحو : ظريف وشريف وكريم ، من ظَرُف وشَرُف وكَرُم »[2].

وكذلك في قوله تعالى ﴿ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴾ (الواقعة:٦٥) ، قال الرسعني : « وقرأ الشعبي وأبو العالية ﴿ فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴾ بكسر الظاء ؛ لأن الأصل فيه (ظِللتم) فنقل حركة اللام إلى الظاء »[3].

١٢- يستعين الرسعني أحياناً بالآيات القرآنية أو الحديث النبوي أو الشعر في توجيه أو تأييد قراءة ما وترجيحها ، كما في الأمثلة الآتية :

ففي قوله تعالى ﴿ هُنَالِكَ تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ ۚ وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ﴾ (يونس:٣٠) ، يقول الرسعني : « وقرأ حمزة والكسائي (تتلو) بتائين ، بمعنى : تقرأ كتاب أعمالها ، ودليله قوله تعالى ﴿ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ ﴾ (الإسراء:١٤) ،

---

(١) رموز الكنوز ٣/ ٢٩،٣٠ ، وانظر الكشف عن وجوه القراءات السبع لمكي القيسي ٥١٦/١ ، وانظر : هذا التوجيه في التبيان لأبي البقاء العكبري ٧/٢ ، ٨ .

(٢) رموز الكنوز ٤٥٣/٥ ، وقرأ الباقون بضم الكاف (فمكُث) ، انظر الكشف عن وجوه القراءات السبع لمكي القيسي ١٥٥/٢ .

(٣) رموز الكنوز ٦١٢/٧ ، وانظر كذلك ٧/ ٢٧٥ ، ٧ /٥١٧ ، ٢٧٥/٨ .

وقوله ﴿ مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ﴾ (الكهف:٤٩) »[١].

وفي قوله تعالى ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴾ (الروم:٢٢)، قال الرسعني : «وقرأت لحفص عن عاصم (للعالِمين) بكسر اللام ، جمع عالم ، وخصّ العالمين وإن كانت الآية لكافة الناس عالمهم وجاهلهم ، لموضع استدلالهم وتدبرهم ، ويؤيد هذه القراءة قوله تعالى ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (الروم:٢٤) ، بهذا رجّح القراء هذه القراءة»[٢].

وفي قوله تعالى ﴿ يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾ (آل عمران:١٢٥)، يقول الرسعني : «وقرأ ابن كثير وعاصم وأبو عمرو (مسوِّمين) بكسر الواو ، وفتحها الباقون ، فمن كسر فعلى معنى أنهم قد سوَّمو أنفسهم أو خيلهم ، ويؤيده الحديث وهو قوله ﷺ يوم بدر (سوِّموا فإن الملائكة قد سوَّمت)[٣] فنسب الفعل إليها ، ومن فتح فعلى معنى : أنهم قد سوِّموا ، وعُلِّموا من السِّيماء وهي العلامة»[٤].

وفي قوله تعالى ﴿ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (الأعراف:١٥٠)، يقول الرسعني : «وقرأ ابن السميفع[٥] بإثبات الياء على الأصل : وقال الشاعر .

---

(١) رموز الكنوز ٣/ ٤٢ ، وقرأ الباقون (تبلو) بالباء ، انظر الكشف عن وجوه القراءات السبع لمكي القيسي ٥١٧/١ .

(٢) رموز الكنوز ١٨/٦ ، وانظر الكشف عن وجوه القراءات السبع لمكي القيسي ١٨٣/٢.

(٣) أخرجه سعيد بن منصور في باب جامع الشهادة ٣٣٠/٢ برقم : ٢٨٦١ (تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ١٤٠٥هـ ، ١٩٨٥م) ، وابن أبي شيبة في كتاب الأوائل ، باب أول ما فعل ١١٢/١٤ ، برقم : ١٧٧٦٥ (تحقيق : عبد الخالق الأفغاني ، طبعة حيدر آباد ، الهند) ، والحديث مرسل أخرجوه عن عمير بن إسحاق وهو تابعي .

(٤) رموز الكنوز ٢٨٩، ٢٩٠، وانظر كذلك ٤٣٩/٣، ١٣٣/٥، ١٣٤ ، وانظر الكشف عن وجوه القراءات السبع لمكي القيسي ٣٥٥/١ .

(٥) سبقت ترجمته ص ٢٢٢ .

يـا ابـن أمـي ويـا شـقيق نفسـي أنـت خلّفتنـي لـدهر شـديد»[1]

وفي قوله تعالى ﴿ وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴾ (هود:٦٦) ، قال الرسعني : «قرأ نافع والكسائي (يومئذ) بفتح الميم ووافقهما عاصم وحمزة في النمل ، والباقون بكسر الميم للإضافة ، ومن فتح بنى يوماً على الفتح ؛ لأن ظروف الزمان إذا أُضيفت إلى الأسماء المبهمة والأفعال الماضية بُنيت واكتسبت البناء من المضاف إليه ، كما قال النابغة :

على حين عاتبت المشيب على الصّبا فقلت ألمّا أصحُ والشيب وازع»[2]

فبنى حين على الفتح ؛ لأنه أضاف الماضي ، والمضاف يكتسي من المضاف إليه البقاء كما يكتسي منه التعريف والتنكير والعموم وغيره . . . . .[3]

١٣- كذلك وجّه الرسعني القراءات وبيّن ما يترتب عليها من خلاف فقهي في الأحكام ، وبيان أثر ذلك الخلاف ، كما في المثال الآتي :

ففي قوله تعالى ﴿ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ ﴾ (النساء:٤٣) ، قال الرسعني : «قرأ حمزة والكسائي «لمستم» ، وقرأ الباقون «لامستم» بألف ، وكذلك في (المائدة:٦) ، فمن قرأ (لامستم) قال : الفعل من اثنين فجرى على المفاعلة ، ويتجه على هذه القراءة قول علي وابن عباس رضي الله عنهم : إن المراد به الجِماع ، ومن قرأ (لمستم) جعل الفعل من واحد ، وهو الإفضاء باليد ، أو ببعض الجسد إلى جسد المرأة ، وهو قول ابن مسعود ، وابن عمر ، ومنصور ، والشعبي ، والنخعي ، وفي هذه

---

(١) رموز الكنوز ٢٦٧/٢، والبيت لأبي زبيد الطائي ، وهو من البحر الخفيف ، انظر : لسان العرب لابن منظور ١١١/٨ (شقق)، وذكره بـ أنت خلفتني لأمر شديد ، وانظر : معجم الشواهد في اللغة العربية لإميل بديع ٤٧٠/٢ .

(٢) البيت للنابغة الذبياني ، وهو من البحر الطويل ، انظر : لسان العرب لابن منظور ٢٠٣/١٥ (وزع)، ومعجم الشواهد في اللغة العربية لإميل بديع ٢٩٢/٤ .

(٣) رموز الكنوز ١٨٤/٣، وانظر كذلك ٢٠٥/٣، ١٤٩/٣، ٥٦٦/٣، ١٦١/٤ وغيرها ، وانظر الكشف عن وجوه القراءات السبع لمكي القيسي ٥٣٢/١ ، ٥٣٣ .

الآية على هذا التفسير مستدلّ لمن حكم بنقض الوضوء من لمس النساء ، وقد اختلف العلماء في ذلك ، وفيه عن الإمام أحمد ثلاث روايات أحدها لا ينقض بكل حال ، والثانية ينقض بكل حال ، والثالثة التفصيل»[1].

١٤- تنويعه في أسلوب توجيه القراءات فأحياناً يأتي بسؤال اعتراضي فيقول : فإن قيل ما وجه قراءة كذا ، كما في المثال الآتي :

ففي قوله تعالى ﴿ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴾ (آل عمران:١٢٤) ، قال الرسعني : «قرأ ابن عامر (منزَّلين) بالتشديد ، قلت : لأنهم نزلوا من مقام إلى مقام حتى انتهوا إلى الأرض ، فإن قيل : ما وجه قراءة من (منزِلين) بكسر الزاي ، قلت : وجهه أنهم أنزلوا النصر ، وجاؤوا به»[2].

١٥- يصرح الرسعني أحياناً بالقراءة الشاذة ، وينبه في بعض المواضع بأن القراءة فيها شاذة ، كما في الأمثلة الآتية :

ففي قوله تعالى ﴿ يَٰلَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ (النساء:٧٣) ، قال الرسعني : «وقُرئ شاذًّا «فأفوزُ» بالرفع[3]، على معنى : فأنا أفوز»[4].

---

(١) رموز الكنوز ١/٥١٩ ، ٥٢٠ بتصرف ، وانظر الكشف عن وجوه القراءات السبع لمكي القيسي ١/٣٩١ ، وانظر تفصيل المسألة الفقهية في المغني لابن قدامة ١/٢٤٨ وما بعدها .

(٢) رموز الكنوز ١/ ٢٨٨ ، ٢٨٩، وقرأ الباقون بالتخفيف ، انظر الكشف عن وجوه القراءات السبع لمكي القيسي ١/٣٥٥ ، وهذا كثير في تفسير الرسعني ، انظر : ٥/٢٧٠، ٣٧٢، ٣٧٣، ٣٨٣، ٦/٣٢٣، وغيرها .

(٣) وهي قراءة الحسن ويزيد النحوي ، انظر : هذه القراءة في البحر المحيط لأبي حيان ٣/٧٠٥ .

(٤) رموز الكنوز ١/ ٥٨٨ ، وانظر : ١/٣٢٧، ٢/٢٨٤، ٣/٦٩٥، ٤/٥٤٩ .

وفي قوله تعالى ﴿ وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴾ (الأعراف:٢٠)، قال الرسعني : «وقرأت شاذًّا (هذي الشجرة) [١] على الأصل ، فإن الأصل : الياء والهاء بدل منها»[٢].

١٦- يستشهد بالقراءة الشاذة في تفسير آية من القرآن أو تأييد لمعنى ما ، وتارة يؤيد ويُعضد القراءة المتواترة بالقراءة الشاذة ، كما في الأمثلة الآتية :

ففي قوله تعالى ﴿ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ﴾ (غافر:٥) ، يقول الرسعني : «قوله تعالى ﴿ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ﴾ وُجّهت إلى الرجال ، وقرأ ابن مسعود (برسولها) ، وكل صواب»[٣].

وفي قوله تعالى ﴿ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ﴾ (يونس:٨١)، قال الرسعني : «فما موصولة واقعة مبتدأ ، و(سحر) خبر ، ويؤيد هذه القراءة قراءة ابن مسعود (ما جئتم به سحر) ، وقراءة أُبي ابن كعب (ما أتيتم به سحر)» [٤].

وفي قوله تعالى ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (يوسف:١١١) ، قال الرسعني : «أي في قصص يعقوب وأولاده ، وقيل : في قصص الرسل ، ويؤيده قراءة من قرأ (قِصصهم) بكسر القاف ، وهي قراءة قتادة وأبي الجوزاء[٥]، وقرأت بها لأبي عمرو من رواية عبد الوارث عنه»[٦].

---

(١) وهي قراءة ابن محيصن ، انظر : المحتسب لابن جني ٢٤٤/١ .

(٢) رموز الكنوز ٩٦/٢ .

(٣) المصدر السابق ٥٩٠/٦ .

(٤) المصدر السابق ٨٥/٣ ، وانظر كذلك ١٤٨/٣ ، وانظر الكشف عن وجوه القراءات السبع لمكي القيسي ٥٢١/١ ، ٥٢٢ .

(٥) هو : أوس بن عبد الله الربعي البصري ، من كبار العلماء ، ومن التابعين . انظر : ترجمته في سير أعلام النبلاء للذهبي ٣٧١/٤ .

(٦) هو : عبد الوارث بن سعيد بن ذكوان ، أبو عبيدة البصري ، إمام ، حافظ ، مقرئ ، ثقة ، ولد عام ١٠٢هـ ، وتوفي سنة ١٨٠هـ بالبصرة . انظر : ترجمته في غاية النهاية لابن الجزري ٤٧٨/١ ، وانظر هذا النص في رموز الكنوز ٤٣٣/٣ .

وفي قوله تعالى ﴿ وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴾ (إبراهيم:٤٦)، قال الرسعني : «والمعنى ما كان مكرهم وإن تعاظم وتفاقم ليزول منه أمر محمد ﷺ وأمر دين الإسلام ، وضرب الجبال مثلاً للحق الذي جاء به محمد ﷺ ؛ لأنه بمنزلتها في التمكن والثبات ، ويؤيده قراءة ابن مسعود (وَما كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ)»[1].

١٧- يردّ القراءة الشاذة أحياناً ويصرح بعدم القبول بها ، كما في الأمثلة الآتية :

ففي قوله تعالى ﴿ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴾ (القمر:٢٦) ، قال الرسعني : «وقرأ أبو قُلابة[2] (الأشَرّ) بفتح الشين وتشديد الراء ، والصحيح ما عليه عامة القرّاء ؛ لثلاثة أوجه أحدها : أنها نُقلت بطريق التواتر الذي لا يثبت كونه قرآنا إلا به . . . »[3].

وفي قوله تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ (إبراهيم:٢٤)، قال الرسعني : «قرأ السُّلمي (ألم ترْ) ساكنة الراء ، وفيها ضعف ؛ لأنه إذا حذف الألف للجزم وجب إبقاء الحركة فيها دليلاً عليها»[4].

١٨- ردّ الرسعني على بعض علماء اللغة لعدم قبولهم القراءة المتواترة ، ولم يرض قولهم ، وإن كان أحياناً لا يُعقّب على أقوالهم كما ينبغي ويجب ، كما في الأمثلة الآتية :

ففي قوله تعالى ﴿ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴾ (الإسراء:٣٨) ، قال الرسعني : «وقرأ أهل الكوفة ، وابن عامر (سيِّئُه) مضافاً غير منوّن ،

---

(١) رموز الكنوز ٥٦٥/٣ .

(٢) هو : محمد بن أحمد بن أبي دارة أبو قُلابة، مقرئ معروف ، روى القراءة عنه منصور ابن أحمد العراقي ، وعلي بن محمد الخبازي ، ترجمته في غاية النهاية لابن الجزري ٦٢/٢ برقم : ٢٧٢٧ .

(٣) رموز الكنوز ٥٢٦/٧ بتصرف .

(٤) المصدر السابق ٥٣٤/٣ ، وانظر كذلك ٤٩٦/٤ ، ٦٨٦/٤ .

واختاره الزجاج فقال : كان أبو عمرو لا يقرأ (سيِّئُه) وهذا غلط ؛ لأن في هذه الأقاصيص سيئاً وغير سيئ . . . ، ثم عقّب الرسعني فقال : « ومن العجب قول الزجاج هذا غلط ، وهي قراءة أهل الحجاز وأهل البصرة بناء على ما ذكره من التعليل ، مع أنه يعلم وجه القراءة وصحة تعليلها ، وأن الإشارة بقوله : كل ذلك كان سيئُه إلى ما تقدم ذكره مما نهى الله عنه »[1].

وفي قوله تعالى ﴿ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا۟ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ﴾ (الأنعام:١٣٧) ، قال الرسعني : « وقرأ ابن عامر (زُيِّن) بضم الزاي على البناء للمفعول الذي هو القتل ، (أولادهم) بالنصب ، أعملوا فيه القتل (شركائهم) بالجر على إضافة القتل إليهم ، والتقدير وكذلك زين لكثير من المشركين قتل شركائهم أولادهم ، فأضاف القتل إلى الشركاء وإن لم يباشروه ؛ لأنهم زيّنوه لآبائهم ودعوهم إليه ، وقد ضعّفوا هذه القراءة للفصل بين المضاف والمضاف إليه ، قال أبو علي الفارسي : وهذا قبيح قليل الاستعمال ، ولكنه جاء في الشعر كما أنشده أبو الحسن الأخفش[2]

فزججتها مُتمكِّناً زجّ القلوصَ أبي مزاده[3]

أي زجّ أبي مزاده القلوص ، وقال الزمخشري : الفصل بين المضاف والمضاف إليه بغير الظرف شيء لو كان في مكان الضرورات وهو الشعر ، كان سمجاً مردوداً ، فكيف في الكلام المنثور؟ فكيف به في القرآن المعجز بحسن

---

(١) رموز الكنوز ٤/١٧٠، ١٧١ ، وانظر الكشف عن وجوه القراءات السبع لمكي القيسي ٢/٤٦ .

(٢) سبقت ترجمته ص ١٣٢ .

(٣) البيت من البحر مجزوء الكامل ، وهو بلا نسبة ، والزجّ : معناه الطعن ، والقلوص : الناقة الشابة ، وقال في المعجم المفصل في شواهد اللغة : فزججتها بمزجة . . انظر : خزانة الأدب ، عبد القادر بن عمر البغدادي ٢/٢٥١ (طبعة الميرية ، بولاق ، القاهرة)، والمعجم المفصل في شواهد اللغة العربية لإميل بديع ٢/١٧١ ، والقاموس المحيط للفيروزآبادي ١٩١ (زجّ) .

نظمه وجزالته ، ثم قال الرسعني : قلت : وقد رُوي عن ابن عامر أنه قرأ بجر (الأولاد) على الإضافة وجر (الشركاء) على البدل من الأولاد ؛ لأنهم يشاركون آبائهم في النسب والميراث والدين »[1].

والغريب أن الرسعني لم يُعلِّق على أقوال النحاة بردهم أو تضعيفهم قراءة ابن عامر المتواترة التي تلقاها نقلاً وسماعاً لا اجتهاداً كما ظنّ النحاة ، ؛ ولأن هذه القراءة متواترة وهي مما قرأ بها النبي ﷺ عن جبريل عليه السلام فيجب الأخذ بهذه القراءة وعدم قياسها على قواعد اللغة كشرط لصحتها ، قال السيوطي نقلاً

---

(١) رموز الكنوز ١٦/٢، ١٧ بتصرف ، وانظر كذلك ٤٠٨/١، ٤٠٩ ، في قراءة حمزة المتواترة بجر الأرحام من قوله تعالى ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ﴾ (النساء:١) ، حيث ذكر الرسعني أقوال النحاة بعدم قبولهم هذه القراءة ؛ لمخالفتها قواعد النحو حسب زعمهم ، ولم يُعلق بشيء على تلك الأقوال المجانبة للصواب ؛ لأن القراءة متواترة ، وقواعد اللغة والنحو هي التي تقاس على القرآن وليس العكس ، وقد أفاض ابن جني في ردّه على النحاة تحت عنوان : باب في أن المحذوف إذا دلّت عليه الدلالة كان في حكم الملفوظ به . . . ثم قال : « من ذلك أن ترى رجلاً قد سددَ سهماً نحو الغرض ثم أرسله فتسمع صوتاً فتقول : القرطاس والله ـ أي ـ أصابها القرطاس ، فأصاب الآن في حكم الملفوظ به البتة وإن لم يوجد في اللفظ ، غير أن دلالة الحال عليه نابت مناب اللفظ به . . . وعلى نحو هذا تتوجه عندنا قراءة حمزة ، وهي قوله تعالى ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ﴾ ثم قال : ليست هذه القراءة عندنا من الإبعاد والفحش والشناعة والضعف على ما رآه فيها ، وذهب إليه أبو العباس ـ أي المبرد ـ بل الأمر فيها دون ذلك ، وأقرب ، وأخف ، وألطف ، وذلك أن لحمزة أن يقول لأبي العباس : إنني لم أحمل (الأرحام) على العطف على المجرور والمضمر بل اعتقدت أن تكون فيه باءً ثانية حتى كأنني قلت : وبالأرحام ثم حذفت الباء لتقدم ذكرها ، كما حذفت لتقدم ذكرها في نحو قولك : بمَنْ تمررْ أمررْ ، ولم تقل : أمرر به » انظر : الخصائص لأبي الفتح عثمان بن جني ٢/ ٢٨٥-٢٨٧ بتصرف (تحقيق : محمد علي النجار ، الهيئة المصرية للكتاب ، ط٣ ، ١٤٠٦هـ ، ١٩٨٦م) ، وانظر : الحجة لأبي علي الفارسي ١٢١/٣ وما بعدها ، حيث ضعّف هذه القراءة ، وانظر : توجيه قراءة الخفض لحمزة في كتاب الحجة لابن خالويه ١١٨ ، وانظر الكشف عن وجوه القراءات السبع لمكي القيسي ٤٥٣/١ .

عن الداني[1] «وإذا ثبتت الرواية لم يردّها قياس عربية ولا فشو لغة ؛ لأن القراءة سنة متبعة يلزم قبولها والمصير إليها»[2]، وقال في موضع آخر «كان قوم من النحاة المتقدمين يعيبون على عاصم وحمزة وابن عامر قراءات بعيدة في العربية وينسبونهم إلى اللحن ، وهم مخطئون في ذلك فإن قراءاتهم ثابتة بالأسانيد المتواترة الصحيحة التي لا مطعن فيها ، وثبوت ذلك دليل على جوازه في العربية[3].

١٩- يفاضل أحياناً بين القراءات المتواترة ، وهذا ما يثير استغراباً فالرسعني إمام له باع طويل في هذا العلم ، وبما أن القراءة متواترة فينبغي عدم الترجيح بينها ، وإن كان أحياناً يصرّح بأن القراءتين متكافئتان كما في الأمثلة الآتية :

ففي قوله تعالى ﴿ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ (آل عمران:١٥٧) ، يقول الرسعني : «قرأ نافع وأهل الكوفة إلا أبا بكر (مِتم) بكسر الميم حيث وقع ، وقرأ الباقون بضم الميم ، غير أن حفصاً ضمّ الميم في هذه السورة خاصة ، فمن ضم ؛ فلأنه من مات يموت ، كقال يقول ، ومن كسر ؛ فعلى لغة من قال : مات يمات ، مثل : دام يدام ، والقراءة الأولى أوجه»[4].

---

(١) هو : أبو عمرو عثمان بن سعيد الأموي الداني ، مقرئ الأندلس الشهير ، وأحد الأئمة في علم القرآن ، له مؤلفات كثيرة أشهرها التيسير ، وجامع البيان في القراءات ، والمقنع ، توفي سنة ٤٤٤هـ ، انظر : ترجمته في معرفة القراء للذهبي ٤٠٦/١ برقم : ٣٤٥ .

(٢) الإتقان للسيوطي ٢٣١/١ .

(٣) الاقتراح : جلال الدين السيوطي٥٢ (تحقيق : طه عبد الرءوف سعد ، مكتبة الصفا ، القاهرة ، ١٤٢٠هـ ، ١٩٩٩م) .

(٤) رموز الكنوز ٣٤٢/١ ، ٣٤٣ ، وانظر الكشف عن وجوه القراءات السبع لمكي القيسي ٣٦١/١ ، ٣٦٢ .

وفي قوله تعالى ﴿ وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴾ (الكهف:٢٥)، قال الرسعني : «قرأ حمزة والكسائي (ثلاثمائة سنين) على الإضافة ، والقراءة الأولى أوجه وأرجح ، وقال أبو علي الفارسي : فمن نوّن ـ أي بقية القراء ـ جعل (سنين) بدلاً من (ثلاثمائة) كما تقول : أعطيته ألفاً دراهم ومائة أثواباً»[1].

وكذلك في قوله تعالى ﴿ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴾ (هود:٦٨)، قال الرسعني : «قرأ حمزة وحفص (ثمودَ) بالفتح والباقون بالتنوين ، وقرأ الكسائي وحده (لثمودٍ) بالخفض والتنوين ، فمن صرف ذهب إلى الحي أو الأب ، ومن لم يصرف ذهب إلى القبيلة ، فيجتمع التعريف والتأنيث ، والقراءتان متكافئتان في الجودة»[2].

٢٠- يستعين أحياناً بقراءة قرأ بها على شيخه لتأييد وجه نحوي ، أو تفسير آية أو كلمة في القرآن ، كما في الأمثلة الآتية :

ففي قوله تعالى ﴿ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ (الأنفال:٤٦) ، قال الرسعني : «قوله (فتفشلوا) نُصب بإضمار (أنْ) ، ويجوز أن يكون داخلاً في جملة النهي ، فيكون مجزوماً ، ويؤيده ما قرأته على شيخنا أبي البقاء عبد الله بن الحسين اللغوي ، (ويذهبْ) بالياء وسكون الباء ، ويؤيد الأول قراءة الباقين»[3].

---

(١) رموز الكنوز ٢٧٠/٤، وانظر الكشف عن وجوه القراءات السبع لمكي القيسي ٥٨/٢ ، وقال العكبري : «يُقرأ بتنوين (مائة) و (سنين) على هذا بدل من ثلاث ، وأجاز قوم أن تكون بدلاً من مائة ؛ لأن مائة في معنى مئات ، ويقرأ بالإضافة وهو ضعيف في الاستعمال ؛ لأن مائة تضاف إلى المفرد ولكنه حمله على الأصل ؛ إذ الأصل إضافة العدد إلى الجمع . . . » ، انظر : التبيان لأبي البقاء العكبري ١٤٥/٢ ، ويبدو أن ترجيح الرسعني أخذه من شيخه أبي البقاء العكبري .

(٢) رموز الكنوز ٣/ ١٨٥، ١٨٦ ، وانظر الكشف عن وجوه القراءات السبع لمكي القيسي ٥٣٣/١ .

(٣) رموز الكنوز ٤٤٣/٢ .

وفي قوله تعالى ﴿ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾ (الزخرف:٣٩)، يقول الرسعني : «وقوله تعالى ﴿ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾ تعليل ، أي : لن ينفعكم تمنيكم ؛ لأن حقكم أن تشتركوا أنتم وقرناءكم في العذاب كما كنتم مشتركين في سببه ، وهو الكفر ، ويؤيده : ما قرأته على أبي البقاء عبد الله بن الحسين العكبري ـ رحمه الله ـ من رواية التغلبي[1] عن ابن ذكوان عن ابن عامر (إنكم) بكسر الهمزة»[2].

٢١- عنايته بتوجيه القراءات القرآنية بالقرآن ، وبرسم المصحف الشريف[3] كما في الأمثلة الآتية :

---

(١) هو : هارون بن موسى بن شريك الأخفش الدمشقي ، أبو عبد الله التغلبي ، شيخ المقرئين بدمشق في زمانه ، قرأ على ابن ذكوان ، وصنّف كتباً في القراءات والعربية ، توفي سنة ٢٩٢هـ . انظر ترجمته في : معرفة القراء للذهبي ٢٤٧/١ برقم : ١٥٣ .

(٢) رموز الكنوز ١٢٦/٧ .

(٣) هو : علم تُعرف به مخالفات خط المصاحف العثمانية لأصول الرسم القياسي ، والمراد بأصول الرسم القياسي : قواعده المقررة فيه . انظر : معجم مصطلحات القراءات القرآنية ، دكتور عبد العلي المسئول ٢١٩ ، وقد أُلفت فيه كتب كثيرة قديماً وحديثاً منها : مرسوم المصحف لأبي عمرو بن العلاء البصري ت ١٥٤هـ (مخطوط في تركيا) ، واختلاف المصاحف لأبي حاتم سهل بن محمد السجستاني ت٢٥٥هـ (مخطوط في ألمانيا) ، وكتاب المصاحف لأبي بكر عبد الله السجستاني ت ٣١٦هـ (مطبوع ، رسالة دكتوراه ، دار البشائر) ، ومرسوم الخط لابن الأنباري ت ٣٢٧هـ (مطبوع ، دلهي بالهند) ، والبديع في هجاء المصاحف لمحمد بن يوسف ت ٤٤٢هـ (مطبوع بتحقيق : دكتور غانم قدوري) ، والمقنع لأبي عمرو الداني ت ٤٤٤هـ (مطبوع ، رسالة دكتوراه ، دار التدمرية ، الرياض) ، وهناك دراسات حديثة خاصة عن رسم المصحف الشريف ، منها رسالة الماجستير للدكتور غانم قدوري الحمد ، بإشراف الدكتور عبد الصبور شاهين ـ رحمه الله ـ في كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، وقد طبعت وزارة الأوقاف العراقية هذه الرسالة القيمة التي تُعدّ مرجعاً في هذا العلم ، ثم أُعيد طبعها في دار عمار بالأردن ، وكذلك كتاب الدكتور شعبان محمد ، طبع في مكتبة دار السلام بالقاهرة .

ففي قوله تعالى ﴿ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَـٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (الحجرات:١٤)، يقول الرسعني : « (لا يلتكم) قرأ أبو عمرو (لا يألتكم) بهمزة بعد الياء ، من ألت يألت ألتاً ، مثل : ضرب يضرب ضرباً ، وحجته ﴿ وَمَآ أَلَتْنَـٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ﴾ (الطور:٢١)، وقرأ الباقون (يلتكم) بغير همز ، من لات يليت ، مثل : باع يبيع ، وحجتهم أنها مكتوبة في المصحف بغير ألف ، ومعناهما واحد»[١].

وفي قوله تعالى ﴿ تَبَـٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ (الرحمن:٧٨)، قال الرسعني : « وكان ابن عامر يقرأ (ذو) بالواو ، وكذلك هو في مصاحف أهل الشام ، جعله صفة لـ (اسم) ، واتفقوا على الموضع الأول أنه بالواو »[٢].

٢٢- اهتمَّ الرسعني بذكر الآثار التي تترتب على القراءات القرآنية ومنها الوقف والابتداء[٣]، كما في المثال الآتي :

ففي قوله تعالى ﴿ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَـٰلَةُ ﴾ (الأعراف:٣٠)، يقول الرسعني : « وانتصاب (فريقاً) على الحال من الضمير في (تعودون) ،

---

(١) رموز الكنوز ٣٦٧/٧ ، وانظر الكشف عن وجوه القراءات السبع لمكي القيسي ٢٨٤/٢ .

(٢) رموز الكنوز ٥٨١/٧ ، ٥٨٢ ، والمقصود بالموضع الأول قوله تعالى ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ (الرحمن:٢٧) ، وانظر الكشف عن وجوه القراءات السبع لمكي القيسي ٣٠٣/٢ .

(٣) **والوقف والابتداء** : علم يُعرف به كيفية أداء القراءة ، وقيل : أنه يعرف به القارئ المواطن التي يتحتم الوقف عليها ، والمواضع التي يحسن الوقف عندها أو يقبح ، والكلمات التي يحسن الابتداء بها أو يقبح ، انظر : الإتقان للسيوطي ٢٤٩/١ ، ومعالم الاهتداء إلى معرفة الوقف والابتداء ، الشيخ محمود خليل الحصري ٤، (مكتبة السنة ، القاهرة ، ط١ ، ١٤٢٣هـ ، ٢٠٠٢م) ، وقد كتب الزميل مجاهد يحيى محمد ـ من اليمن ـ رسالة دكتوراه بعنوان «الوقف في القراءات وأثره في التفسير والأحكام ، ونوقشت في كلية دار العلوم ، جامعة القاهرة ، بإشراف أستاذي الدكتور محمد إبراهيم شريف ، والدكتور حلمي عبد الرؤوف ، وتوجد نسخة منها بمكتبة كلية دار العلوم ، قسم الرسائل برقم : ٢١٧٢ لسنة ٢٠١٠م .

تقديره : تعودون مختلفين مهتدين وضالين ، ويؤيد ذلك قراءة أُبي بن كعب (تعودون فريقين فريقاً هدى وفريقاً حق عليه الضلالة) ، وجائز أن يكون (فريقاً) الأولى منصوباً بـ (هدى) ، والثاني بفعل مضمر يدل عليه ما بعده ، تقديره : وأضل فريقاً حق عليهم الضلالة ، فعلى هذا يجوز الوقف على تعودون ، وعلى الأول لا يجوز»[1]، فليحظ استشهاد الرسعني لوجه الإعراب الجائز بالقراءة وبيان ما يترتب عليها مثل الوقف والابتداء .

٢٣- يبدي رأيه عند توجيهه للقراءات بعد ذكره لتوجيهات العلماء ؛ مما يدل على علميته وقدراته الكبيرة التي تتيح له أن يُدلي بدلوه طالما أن المقام يسمح ويتسع له بذلك ، كما في الأمثلة الآتية :

ففي قوله تعالى ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ (يوسف:٣٠) ، يقول الرسعني : «وقرأ جماعة منهم : علي بن أبي طالب ، وعلي بن الحسين ، ومحمد بن علي ، وجعفر بن محمد عليهم السلام ، والحسن وقتادة وثابت البناني[2]، والأعرج[3] (قد شعفها) بالعين المهملة ، قال الفرّاء كأنه ذهب بها كل مذهب ، والشُعف رؤوس الجبال ، وقال الزجاج : فإذا قلت : فلان مشعوف بكذا ، فمعناه أنه ذهب به الحب أقصى المذاهب ، ويجوز عندي : ـ والله تعالى أعلم ـ أن يكون معنى هذه القراءة : من قولهم شعفه الحب ، كأنه غشّى قلبه ، وشعفة القلب : رأسه عند معلق النياط ، فيكون ذلك إشارة إلى تمكّن حبه من قلبها وسلطته عليه»[4].

---

(١) رموز الكنوز ١٠٧/٢ .

(٢) هو : ثابت بن أسلم ، أبو محمد البناني المصري ، توفي سنة ١٢٧هـ ، ووردت عنه الرواية في حروف من القرآن الكريم . انظر : ترجمته في غاية النهاية لابن الجزري ١٨٨/١ .

(٣) هو : حميد بن قيس الأعرج ، أبو صفوان المكي ، قارئ مكة ، توفي سنة ١٣٠هـ ، انظر : ترجمته في معرفة القراء للذهبي ٩٧/١ برقم : ٣٧ .

(٤) رموز الكنوز ٣٢٣/٣ ، ٣٢٤ بتصرف .

وفي قوله تعالى ﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (المنافقون:٨)، يقول الرسعني : «وفي قراءة الحسن البصري ، وابن أبي عبلة[1] (لنخرجن) بالنون ، ونصب (الأعز) و(الأذل) ، قال الزمخشري : معناه خروج الأذل ، أو إخراج الأذل ، أو مثل الأذل ، ويحتمل عندي : أن يكون مراد المنافق ـ قاتله الله ـ على هذه القراءة : إجراء الصفتين على النبي ﷺ ، على معنى : لنخرجن الأعز على أصحابه ، الأذل عندنا ، فسلب الله عن المنافق ما انتحله لنفسه المهينة من العزة فقال ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾»[2].

٢٤- بعد هذه اللمحات والوقفات مع الرسعني ، وموقفه ومنهجه من القراءات في تفسير القرآن أودّ أن أُشير إلى أن توجيه القراءات كان يأخذه من غيره ، فأحياناً يشير إليهم فيقول : قال الفرّاء أو الزجّاج أو أبو علي الفارسي وغيرهم ـ كما في الأمثلة السابقة ـ وتارة ينقل التوجيه دون الإشارة إليهم كما في المثال الآتي .

ففي قوله تعالى ﴿ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ (النساء:٢٤) ، يقول الرسعني : «واتفق القراء السبعة على فتح الصاد من (المحصنات) هنا ، وكسرها الكسائي فيما عدا هذا الموضع من (المحصنات) و(محصِنات) ، من أحصنّ أنفسهن بالعفاف فهن محصنات ، ومن فتح الصاد أجرى الفعل على ما لم يُسمَّ فاعله ، أي : أحصنهن غيرهن من زوج أو ولي ؛ ولذلك فتح الكسائي الصاد هنا لأن الآية نزلت في تحريم

---

(١) هو : إبراهيم بن أبي عبلة ، أبو إسحاق العقيلي الشامي المقدسي ، شيخ فلسطين ، ويعد من بقايا التابعين ، ولد بعد الستين ، وتوفي سنة ١٥٢هـ . انظر : ترجمته في سير أعلام النبلاء للذهبي ٣٢٣/٦ .

(٢) رموز الكنوز ١٤٦/٨ .

الأزواج»[1]، ولعلي أكتفي بهذا المثال ؛ لأن معظم توجيهات الرسعني أخذت من مصادر أخرى إلا ما صرّح به بأنه يرى كذا كما سبق .

٢٥- كما ينبغي أن أُشير إلى أن توجيهات الرسعني اتسمت أحياناً بالاستطراد في توجيهه القراءة[2]، وإن كان الطابع العام هو ذكر النافع من التوجيه بما يوضح المعنى من غير إيجاز مخلٍّ أو إطناب مملٍّ .

* * *

---

(١) رموز الكنوز ٤٧٢/١ ، ٤٧٣ ، وانظر الكشف عن وجوه القراءات السبع لمكي القيسي ٣٨٤/١ ، وانظر هذا التوجيه في الحجة لأبي علي الفارسي ١٤٨/٣ ، وقال ابن خالويه في توجيه هذه القراءة : «الحجة لمن فتح أنه جعلهن مفعولاً به ؛ لأن أزواجهن أحصنوهن ، والحجة لمن كسر أنه جعل الفعل لهن ، أي أحصنّ أنفسهن فهنّ محصِنات لها ، أي عفيفات ، أو تكون أحصنت نفسها بالإسلام من الفجور فصارت محصنة . انظر : الحجة لابن خالويه ١٢٢ (تحقيق : دكتور عبد العال سالم مكرم ، الشروق ، ط٢ ، ١٣٩٧هـ ، ١٩٧٧م) .

(٢) انظر على سبيل المثال في رموز الكنوز ٥٧٧/٣ وما بعدها ، استطراده في توجيهه قراءة (ربما) من الآية ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ ﴾ (الحجر:٢) ، وانظر كذلك رموز الكنوز ٥٢٦/٤-٥٣١ في توجيهه (إن هذين) من ﴿ قَالُوٓاْ إِنْ هَٰذَانِ لَسَٰحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا ﴾ (طه:٦٣)، حيث استغرق توجيه القراءة أكثر من أربع صفحات .

obeikandl.com

obeikandl.com

المبحث الثالث

منهجه في أسباب النزول

يُقسِّم العلماء آيات القرآن من حيث نزولها على قسمين ، **أحدهما** : ما نزل ابتداءً ، **والآخر** : ما نزل عقب واقعة أو سؤال ، وهذه الواقعة أو السؤال يُسمّى سبب النزول[1].

إن معرفة سبب النزول أمر لا غنى عنه لمن يهتم بتفسير القرآن الكريم فهو يُعين كثيراً على فهم الآية وإدراك معناها على الوجه الصحيح ، « فبيان سبب النزول طريق قوي في فهم معاني القرآن»[2]، وقيل أيضاً : «معرفة سبب النزول يعين على فهم الآية ، فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب»[3]، ونُقِل عن الواحدي قوله «امتناع معرفة تفسير الآية وقصد سبيلها دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها»[4]؛ مما يُوحي بأن لكل آية سبب نزول أو قصة ، والراجح أن تفسير آيات القرآن الكريم لا يتوقف على بيان القصة أو معرفة سبب النزول ؛ لأن معظم آيات القرآن نزل ابتداءً ، لا بسبب حادثة أو واقعة

---

(١) الإتقان للسيوطي ١/١٠٨ ، وأول من صنّف في هذا الفنّ علي بن المديني شيخ البخاري المتوفى سنة ٢٣٤هـ ، ثم تبعه آخرون كأبي المطرف القرطبي ، وابن الجوزي ، وابن حجر ، غير أن المشهور منها والمطبوع من كتب هذا الفنّ كتابان هما : أسباب النزول للواحدي ، ت ٤٦٨هـ ، ولباب النقول في أسباب النزول للسيوطي ت٩١١هـ .

(٢) الإتقان للسيوطي ١/ ١٠٨، وهو قول : ابن دقيق العيد .

(٣) مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية ٣٠ .

(٤) أسباب النزول للواحدي ١٠ (تحقيق : كمال بسيوني ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ١٤١١هـ ، ١٩٩١م) .

أو سؤال ، كآيات الإيمان والأخبار والأحكام وواجبات الإسلام[1]، ولأسباب النزول فوائد عديدة كونها تُعين على فهم وتدبر الآيات التي لها سبب نزول ، ومعرفة وجه الحكمة الباعثة على تشريع الحكم ، والوقوف على المعنى وإزالة الإشكال ، ودفع توهم الحصر ، وغيرها من الفوائد[2].

أما طريقة معرفة سبب النزول فهو السماع والرواية ولا مجال فيه للرأي والاجتهاد ، قال الواحدي : « لا يحلّ القول في أسباب نزول الكتاب إلا بالرواية والسماع ممن شاهدوا التنزيل ، ووقفوا على الأسباب وبحثوا عن علمها.... »[3]، وعلى هذا « فإذا ما أخبر الصحابي الذي شهد الوحي والتنزيل عن آية من القرآن أنها نزلت في كذا فإنه حديث مسند»[4]، وربما كان قولهم : « نزلت هذه الآية في كذا يراد به تارة أنه سبب النزول ويراد به تارة أن هذا داخل في الآية وإن لم يكن السبب ، كما تقول عَنى بهذه الآية كذا»[5]، ولما كان سبب النزول طريقه الرواية فلابدّ من التحقق من صحة السند كي تقبل تلك الرواية ، فتخضع لقواعد النقد كما في السنة النبوية ، وما كان من قبيل المسند من الصحابي ينطبق على التابعي وفي هذا يقول السيوطي : « ما تقدم أنه من قبيل

---

(١) قال الزركشي : « والحق أن علم التفسير منه ما يتوقف على النقل ، كسبب النزول والنسخ وتعيين المبهم وتبيين المجمل ، ومنه ما لايتوقف ويكفي في تحصيله التفقه على الوجه المعتبر » ، وقال الزرقاني : « قسم نزل من الله ابتداءً غير مرتبط بسبب من الأسباب الخاصة ، إنما هو لمحض هداية الخلق إلى الحق ، وهو كثير لا يحتاج إلى بحث ولا بيان ، وقسم نزل مرتبطاً بسبب من الأسباب الخاصة» . انظر : البرهان للزركشي ١٧١/٢ ، ومناهل العرفان للزرقاني ٩٥/١

(٢) ذكر هذه الفوائد وغيرها الإمام السيوطي في الإتقان ١٠٨/١ وما بعدها ، وضرب لكل فائدة مثالاً .

(٣) أسباب النزول للواحدي ١٠ .

(٤) معرفة علوم الحديث للحاكم ٢٠ ، (تحقيق : دكتور السيد معظم ، المكتبة العلمية ، المدينة المنورة ، ط٢ ، ١٣٩٧هـ ، ١٩٧٧م) .

(٥) مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية ٣١ .

المسند من الصحابي إذا وقع من تابعي فهو مرفوع أيضاً لكنه مرسل[1]، فقد يقبل إذا صحّ السند إليه ، وكان من أئمة التفسير الآخذين عن الصحابة ، كمجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير ، أو اعتضد بمرسل آخر ونحو ذلك»[2].

وكذلك مما هو جدير بالذكر في هذا الصدد الإشارة إلى تنازع العلماء في قول الصحابي : «نزلت هذه الآية في كذا ، هل يجري مجرى المسند؟ ـ كما لو ذكر السبب ـ الذي أُنزلت لأجله ـ أو يجري مجرى التفسير منه الذي ليس بمسند؟ فالبخاري يدخله في المسند ، وغيره لا يدخله في المسند ، وأكثر المسانيد على هذا الاصطلاح ، كمسند أحمد وغيره ، بخلاف ما إذا ذكر سبباً نزلت عقبه ، فإنهم كلهم يدخلون مثل هذا في المسند»[3]

وقد يتعدد سبب النزول للآية فمرّة تنزل لهذا السبب ، ومرة لهذا السبب ، وقد تناولت هذه المسألة كتب علوم القرآن بتفسير طويل[4].

وبناء على ما تقدم فإن هناك مسألة وثيقة الصلة في هذا الموضوع وهي القاعدة المشهورة :

«أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب»[5]، وفحوى هذه القاعدة «أن الحكم يتعدى إلى غيره ممن ينطبق عليه لفظ الآية ويشمله وصفها ، كما في آية الظهار فإنها نزلت في خولة بنت ثعلبة وزوجها أوس بن الصامت حيث

---

(١) هو قول التابعي الكبير قال رسول الله ﷺ كذا ، أو فعله يسمى مرسلاً ، انظر : تدريب الراوي للسيوطي ١٥٩ .

(٢) الإتقان للسيوطي ١/١١٥ .

(٣) مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية ٣١، ٣٢ ، والإتقان للسيوطي ١/١١٤، ١١٥.

(٤) انظر : على سبيل المثال البرهان للزركشي ٢٢-٣٤ ، والإتقان للسيوطي ١/١٠٨-١٢٣ ، وغيرها .

(٥) هذا رأي جمهور الأصوليين ، وهناك من يرى أن العبرة بخصوص السبب والأول أرجح ؛ لأن الصحابة رضي الله عنهم احتجوا في وقائع بعموم آيات نزلت على أسباب خاصة .

ظاهر منها ، والحكم الوارد في الآيات يعُمّ كل من يظاهر من زوجته ، فالآية التي لها سبب معين إن كانت أمراً أو نهياً فهي متناولة لذلك الشخص ولغيره ممن كان بمنزلته ، وإن كانت خبراً بمدح أو ذم فهي متناولة لذلك الشخص ولمن كان بمنزلته»[1].

إن هذه القاعدة العامة قد تكون مخصوصة إذا ما جاء دليل على تخصيص اللفظ ، ولا يبقى على عمومه كما يقول السيوطي : «وقصرت آيات على أسبابها اتفاقاً لدليل قام على ذلك»[2] كقوله تعالى ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ۝ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴾ (الليل:١٧، ١٨) ، فإنها نزلت بأبي بكر الصديق ﷺ فإن هذه الآية ليس فيها صيغة عموم إذ الألف واللام إنما تفيد العموم إذا كانت موصولة أو معرفة في جمع ، واللام ليست موصولة أو معرفة في جمع ، فبطل القول بالعموم ، وتعيّن القطع بالخصوص والقصر على من نزلت فيه ﷺ[3].

لقد أدرك الرسعني أهمية أسباب النزول في فهم معاني الآيات فأكثر منها في تفسيره ، أما موقف الرسعني من أسباب النزول في تفسيره وكيف تعامل معها ، وانتفع بها في بيان معاني الآيات فهذا ما سنعرفه من خلال النقاط الآتية :

١- ينقل الرسعني أسباب النزول عن الصحابة والتابعين من الصحيحين والسنن وغيرهما ، وهذا يتكرر عنده كثيراً ، ويكفي أن أشير إليه دون أن أسوق له الأمثلة ؛ لأن ما سيأتي من أمثلة يغني الموضوع إيضاحاً[4].

٢- يختصر سبب النزول ولا يورده كاملاً (كما جاء من مصادره) ، كما في الأمثلة الآتية :

---

(١) مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية ٣٠ .

(٢) الإتقان للسيوطي ١/١١٠ .

(٣) المصدر السابق ١/١١٢ بتصرف .

(٤) انظر في رموز الكنوز على سبيل المثال ١/٥٩٣ ، ١/٦٤٠ ، ٢/٥٢٠ ، ٤/٣٠ ، ٦/١٥٥، ١٥٦ وغيرها .

ففي قوله تعالى ﴿ كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَـٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾(آل عمران:٨٦)، قال الرسعني : «هم طائفة ارتدّوا عن الإسلام منهم الحارث بن سويد ، فندم وعاد إلى الإسلام فاستثناه الله بقوله ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (آل عمران:٨٩) ، وقيل : نزلت في اليهود ، كفروا بالنبي ﷺ حسداً بعد إيمانهم به قبل مبعثه والقولان عن ابن عباس»[١].

وسبب النزول كما جاء في المصادر عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : «كان رجل من الأنصار أسلم ثم ارتدّ ، ثم ندم فأرسل إلى قومه : أرسلوا إلى رسول الله ﷺ هل لي من توبة ؟ فنزلت ﴿ كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ . . .﴾ إلى قوله ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ ، فأرسل إليه قومه فأسلم»[٢].

٣- يذكر الرسعني أحياناً سبب النزول ويسوقه بسنده ، كما في المثال الآتي :

ففي قوله تعالى ﴿ لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَـٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَـٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ﴾ (النساء:٩٥) ، قال الرسعني : «قرأت على قاضي القضاة شرقاً وغرباً ، أبي صالح عماد الدين نصر بن عبد الرزاق بن عبد القادر الجيلي الحنبلي[٣]، أخبرتكم شهدة بنت أحمد بن الفرج الكاتبة[٤] بقراءة والدك عليها فأقرّ به ،

---

(١) رموز الكنوز ٢٣٤/١ ، وانظر كذلك على سبيل المثال ٤٥٩/٣ ، ١٤٦/٥ ، فالرسعني لم يكن على منهج واحد في عرضه سبب النزول ، فتارة يذكره بالسند ، أو يشير لمصدره فيقول : أخرجه فلان ، وتارة لا يشير لهذا ، وتارة يقول : قيل أو رُوي .....إلخ .

(٢) أسباب النزول للواحدي ١١٦ ، ١١٧ .

(٣) سبقت ترجمته في ص ٧٤ .

(٤) هي : شهدة بنت أحمد بن الفرج الدينوري البغدادي ، مسندة العراق ، ولدت بعد الثمانين وأربعمائة ، ولها مشيخة عُرفت بها ، توفيت سنة ٥٧٤ ، انظر : ترجمتها في سير أعلام النبلاء للذهبي ٥٤٢/٢٠ ، ٥٤٣ .

أخبرنا أبو الفضل محمد بن عبد السلام الأنصاري[1]، أخبرنا الحافظ أبو بكر البرقاني[2]، قرأت على أبي العباس بن حمدان[3]، حدثكم محمد بن أيوب[4]، أخبرنا عمرو بن مرزوق[5]، أخبرنا شعبة ، عن أبي إسحاق ، سمعت البراء ابن عازب «لما نزلت ﴿ لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ «دعا رسول الله ﷺ زيداً ، قال : فجاء بكتف فكتبها ، قال : فجاء ابن أم مكتوم فشكى ضرارته إلى رسول الله ﷺ قال : فنزلت ﴿ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ ﴾ (النساء:٩٥)»[6].

٤- يستعين أحياناً بسبب النزول على تفسير آية أو بيان معانيها دون أي إشارة لسبب النزول ، كما في الأمثلة الآتية :

---

(١) هو : محمد بن عبد السلام بن أحمد بن عمر أبو الفضل الأنصاري البزاز البغدادي ، توفي سنة ٤٩٨هـ ، انظر : ترجمته في شذرات الذهب لابن العماد ٤٠٩/٣ .

(٢) هو : أحمد بن محمد بن أحمد بن غالب أبو بكر الخوارزمي البرقاني ، حافظ ثبت ، شافعي المذهب ، سمع وحدّث كثيراً ، توفي سنة ٤٢٥هـ ، انظر : ترجمته في سير أعلام النبلاء للذهبي ٤٦٤/١٧ .

(٣) هو : محمد بن أحمد بن حمدان بن علي بن عبد الله بن سنان الخوارزمي، إمام حافظ ، محدّث خوارزم ، ولد سنة ٢٧٣هـ ، وتوفي سنة ٣٥٦هـ ، انظر : ترجمته في سير أعلام النبلاء للذهبي ١٩٣/١٦ .

(٤) هو : محمد بن أيوب بن يحيى بن الضريس البجلي أبو عبد الله الرازي ، صاحب كتاب فضائل القرآن ، توفي سنة ٢٩٤هـ بالريّ ، انظر : ترجمته في سير أعلام النبلاء للذهبي ٤٤٩/١٣ .

(٥) هو : عمرو بن مرزوق ، أبو عثمان الباهلي ، مولاهم البصري ، مسند البصرة ، ولد سنة بضع وثلاثين ومائة ، توفي سنة ٢٢٤هـ بالبصرة ، انظر : ترجمته في سير أعلام النبلاء للذهبي ٤١٧/١٠ .

(٦) رموز الكنوز ٥٩٦/١ ، ٥٩٧ ، والحديث أخرجه البخاري في كتاب التفسير ، باب لا يستوي القاعدون من المؤمنين برقم : ٤٣١٧ و ٤٣١٨ ، ومسلم في كتاب الإمارة ، باب سقوط فرض الجهاد عن المعذورين برقم : ١٨٩٨ ، وانظر كذلك في رموز الكنوز ٤٢٧/١ ، ٢٥٣/٣ ، ٢٢٤ ، ٥٦٢/٦ ، وغيرها .

ففي قوله تعالى ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴾ (الإسراء: ٨٠)، قال الرسعني : «وروى ابن عباس أن المعنى أدخلني المدينة مُدخل صدق ، وأخرجني من مكة مُخرج صدق»[١].

وفي قوله تعالى ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ۖ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ﴾ (فصلت: ٤٤) ، قال الرسعني : «أي لو أنزلنا القرآن بلسان أعجمي ﴿ لَّقَالُوا لَوْلَا ﴾ ، هلا ﴿ فُصِّلَتْ ﴾ ، أي بيّنت ﴿ آيَاتُهُ ﴾ بأن تنزل عربية ، ولقالوا إنكاراً لذلك ﴿ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ﴾، أي : أقرآن أعجمي ورسول عربي؟ أو مرسل إليه عربي؟ والمعنى الأول : قول سعيد بن جبير ، والثاني : قول السُّدّي»[٢].

٥- يُكثر الرسعني من إيراد أكثر من سبب نزول للآية ، وهذا يعني أنه مع من يرى جواز تعدد أسباب النزول للآية الواحدة[٣]، فضلاً عن توجيه ما يترتب على تعدد تلك الأقوال من معاني ، كما في المثال الآتي :

ففي قوله تعالى ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾(آل عمران: ١٨٨)، قال الرسعني : «وقد اختلف العلماء في سبب نزولها على أقوال **أحدها** : ثم ذكر بالإسناد عن أبي سعيد الخدري (أن رجالاً من المنافقين على عهد

---

(١) رموز الكنوز ٢٢٠/٤ ، وهذا المعنى الذي رُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما أخرجه الترمذي عنه ، قال : كان النبي ﷺ بمكة ، ثم أُمر بالهجرة ، فنزلت عليه ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي ﴾ ، سنن الترمذي في كتاب التفسير ، باب ومن سورة بني إسرائيل برقم : ٣١٣٩ ، وقال الترمذي : حديث حسن صحيح .

(٢) رموز الكنوز ٣٩/٧ ، وسبب النزول أورده الطبري عن سعيد بن جبير قال : قالت قريش : لولا أُنزل هذا القرآن أعجميًا وعربيًا فأنزل الله ﴿ لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ﴾، انظر : جامع البيان للطبري ١٢٦/٢٤، ١٢٧ .

(٣) حيث صرّح الرسعني بهذا فقال : إنه غير ممتنع أن ينزل بالمدينة ما كان سببه بمكة ، وأن يكون المجموع سبباً لنزول الآية ، انظر : رموز الكنوز ٦١٦/٢، وانظر كذلك ٤٣٣/١ ، ٤٣٤ الآية (١١) من سورة النساء .

رسول الله ﷺ كانوا إذا خرج رسول الله ﷺ إلى الغزو تخلفوا عنه ، وفرحوا بمقعدهم خلاف رسول الله ، فإذا قدم رسول الله ﷺ اعتذروا إليه وحلفوا ، وأحبوا أن يحمدوا بما لم يفعلوا) فنزلت الآية ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا ﴾» [1].

القول الثاني : ذكره بالإسناد أيضاً عن ابن عباس لما سُئل عن هذه الآية قال : ما لكم ولهذا ، إنما دعا النبي ﷺ يهود؟ فسألهم عن شيء فكتموه إياه ، وأخبروه بغيره ، فأروه أن قد استحمدوا إليه بما أخبروه عنه فيما سألهم ، فرحوا بما أتوا من كتمانهم ، ثم قرأ ابن ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ ﴾ (آل عمران:١٨٧)حتى قوله ﴿ بِمَآ أَتَوا ﴾ [2].

القول الثالث : إن يهود المدينة كتبت إلى يهود العراق واليمن ، ومن بلغهم كتابهم من اليهود في الأرض كلها ، أن محمداً ليس بنبيّ ، فأثبتوا على دينكم ، فاجتمعت كلمتهم على الكفر ، ففرحوا بذلك ، وقالوا : نحن أهل الصوم والصلاة وأولياء الله ، فنزلت هذه الآية ، قاله : الضحاك والسُّدّي .

القول الرابع : إن يهود خيبر أتوا النبي ﷺ وأصحابه فقالوا : نحن على رأيكم ، ونحن لكم ردء ، وهم متمسكون بضلالتهم ، وأرادوا أن يحمدهم نبيّ الله بما لم يفعلوا ، فنزلت هذه الآية ، قاله قتادة .

القول الخامس : إن قوماً من أهل الكتاب دخلوا على النبي ﷺ ، ثم خرجوا من عنده ، وذكروا للمسلمين أنهم قد أخبروا بأشياء قد عرفوها فحمدهم ، وأبطنوا خلاف ما أظهروا فنزلت هذه الآية ، ذكره الزجاج .

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير ، باب لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا برقم : ٤٢٩١ .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب التفسير ، باب لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا برقم : ٤٢٩٢ .

ثم قال الرسعني معقّباً على تلك الأقوال :

والذين أتوا على القول الأول : تخلفهم عن الغزاة ، وعلى القول الثاني : كتمانهم الحق الذي سُئلوا عنه ، وعلى القول الثالث : اجتماعهم على تكذيب النبي ﷺ ، وعلى الرابع والخامس : نفاقهم بإظهار ما ليس في قلوبهم ، وهي على القول الأول في المنافقين ، وعلى سائر الأقوال في اليهود»[1].

فكما تبيّن من خلال هذا المثال أن الرسعني ذكر أكثر من سبب لنزول الآية الكريمة ، ولكنه لم يرجّح بين تلك الأقوال واكتفى بتوجيهها وما يترتب عليها من معاني فكأنه ارتضاها جميعاً وجمع بينها ، وقد أسند الأقوال إلى قائليها كما يلاحظ ، فضلاً عن أنه لم يكتف بما في الصحيحين من سبب النزول .

٦- يرجّح أحياناً بين أسباب النزول فيُعقّب بقوله وهذا أشهر ، كما في المثال الآتي .

ففي قوله تعالى ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴾ (الأحزاب:٣٦) ، قال الرسعني : « قال ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، وجمهور المفسرين : نزلت في زينب بنت جحش وأخيها عبد الله ، وكانا ابني عمة رسول الله ﷺ ، وكان رسول الله ﷺ خطبها لزيد بن حارثة ، فقالت : أنا ابنة عمتك وأتمّ نساء قريش فكيف أرضاه لنفسي ، فأنزل الله هذه الآية ، فبادرت بصريح إيمانها فقالت : أمري بيدك يا رسول الله فزوّجها به ، وقال ابن زيد : نزلت في أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط ، وكانت وهبت نفسها للنبي ﷺ ، فزوّجها من زيد بن حارثة ، فكرهت وكره أخوها ، والأول أكثر وأشهر»[2].

---

(١) رموز الكنوز ٣٨٩/١-٣٩١ بتصرف ، ولم أذكر سنده الذي ساقه في حديث أبي سعيد الخدري ، وابن عباس رضي الله عنهم في الصحيحين للاختصار .

(٢) رموز الكنوز ١٦٠/٦، ١٦١بتصرف يسير ، وكذلك عند قوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ ﴾ (الممتحنة:١٢) ، قال الرسعني : « قال المفسرون : لما فتح رسول الله ﷺ مكة جاءته النساء يبايعنه فنزلت هذه الآية ، وفي هذا القول منافاة لحديث عائشة الذي رويناه آنفاً ، ومعلوم أن امتحانهن كان قبل الفتح في هدنة الحديبية ، ثم قال : حديث عائشة أصحّ وأثبت ١٠٠/٨ ، وانظر كذلك ٢١٨/٧ قال : والصحيح الأول .

٧- يكتفي أحياناً بإيراد أحد سببي نزول الآية ، ولا يشير إلى سبب النزول الثاني ، كما في المثال الآتي :

ففي قوله تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ (النور:٦)، قال الرسعني : «سبب نزولها عن ابن عباس ، أن هلال بن أمية قذف امرأته عند النبي ﷺ بشريك بن سحماء ، فقال النبي ﷺ : (البيّنة أو حدّ في ظهرك ، فقال هلال : والذي بعثك بالحق إني لصادق ، والله إني لصادق فلينزلنَّ الله ما يُبَرئ ظهري من الحدِّ ، فنزل جبريل ، وأنزل عليه ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ . . ﴾ [(١)].

٨- استخدم الرسعني سبب النزول كأداة من أدوات الترجيح في تفسيره ، وميله لمعنى من المعاني في الآية ، كما في المثال الآتي :

ففي قوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ ﴾ (النساء:٤٣)، يقول الرسعني : «أخرج أبو داود في سننه ، والترمذي في جامعه واللفظ له بإسنادهما عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال :

---

(١) رموز الكنوز ١٩٤/٥ ، ١٩٥ ، والحديث أخرجه البخاري في كتاب التفسير ، باب (ويدرءوا عنها العذاب) برقم : ٤٤٧٠ ، وذكره الرسعني بسنده ، ولهذه الآية سبب نزول آخر كما هو معروف في الصحيحين عن سهل بن سعد قال : (جاء عويمر إلى عاصم بن عدي فقال : اسأل لي رسول الله ﷺ ، أرأيت رجلاً وجد مع امرأته رجلاً فقتله ، أيقتل به ، أم كيف يصنع؟ فسأل عاصم رسول الله ﷺ ، فعاب رسول الله ﷺ السائل ، فلقيه عويمر فقال : ما صنعت؟ قال ما صنعت ، إنك لم تأتني بخير سألت رسول الله ﷺ فعاب السائل ، فقال عويمر : فوالله لآتين رسول الله فلأسألنه ، فسأله فقال : إنه أُنزل فيك وفي صاحبتك الآيات) ، أخرجه البخاري في كتاب التفسير ، باب قوله عز وجل (والذين يرمون أزواجهم) برقم : ٤٤٦٨ ، ومسلم في كتاب اللعان برقم : ١٤٩٢ ، وقال ابن حجر : «اختلفت الأئمة في هذه المواضع فمنهم من رجّح أنها نزلت في شأن عويمر ، ومنهم من رجّح أنها نزلت في شأن هلال ، ومنهم من جمع بينهما بأن أول من وقع له ذلك هلال وصادف مجيء عويمر أيضاً ، فنزلت في شأنهما معاً» ، انظر : فتح الباري ٤٥٠/٨ .

صنع لنا ابن عوف طعاماً ، فدعانا فأكلنا وسقانا خمراً ، قبل أن تُحرّم الخمر ، فأخذت منا ، وحضرت الصلاة فقدّموني ، فقرأت (قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ونحن نعبد ما تعبدون) ، قال : فخلطت ، فنزلت ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ ﴾[1] والمراد من الآية زجرهم عن الشرب في الأوقات القريبة من الصلوات ، ثم نسخ[2] ذلك بما ذكرناه في البقرة ـ أي في تفسير سورة البقرة ـ،وقيل:﴿ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ أي مواضع الصلاة ، وهي المساجد ، كأنه نزّه المساجد من السكارى ؛ لأنه لا يُؤمن تلويثهم للمساجد ، وقيل : ﴿ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ ﴾ من النعاس ، فإنكم لا تعقلون ما تصلون ، ثم قال الرسعني : « وكل هذا محتمل ، غير أن التفسير الذي يُعتمد عليه ما اقتضاه سبب النزول ، وهو السُّكر المعروف ، وهو المتبادر إلى الأفهام عند الإطلاق »[3].

٩- يحاول الرسعني أحيانا أن يوّفق بين سببي النزول ، معللاً ذلك بجواز نزول الآية بسببين ، كما في المثال الآتي :

ففي قوله تعالى ﴿ وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (الأنفال:٣٢) ، يقول الرسعني : « القائل (إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر . . .) ، هو النضر ابن الحارث في قول ابن عباس وأكثر المفسرين ، ولا منافاة بين هذا القول وبين ما أُخرج في الصحيحين من حديث أنس بن مالك قال : قال أبو جهل : (اللهم

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب التفسير ، باب ومن سورة النساء برقم : ٣٠٢٦ ، وأبو داود في كتاب الأشربة ، باب في تحريم الخمر برقم : ٣٦٧١، وقال الترمذي : هذا حديث حسن غريب صحيح .

(٢) نُسخ حكم آية النساء (٤٣) بقوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (المائدة:٩٠) ، فنسخ حكم الآية وبقيت التلاوة ، وهو من التدرج في التشريع .

(٣) رموز الكنوز ١/٥١٥ ، ٥١٦ بتصرف .

إن كان هذا هو الحق من عندك ...)، فأنزل الله ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾ (الأنفال:٣٣) ، فلما أخرجوه نزلت ﴿ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ ﴾ (الأنفال:٣٤) لجواز نزولها بسبب قوليهما »[١].

١٠- يراعي الرسعني قاعدة « العبرة بعموم اللفظ أو بخصوص السبب » فيصرّح أحياناً بأن هذه الآية عامة بعد إيراد سبب النزول ، وهذا هو الصواب إلا إذا دلّ الدليل على تخصيص السبب على شخص معين ولا تتعداه لغيره ، كما في الأمثلة الآتية :

ففي قوله تعالى ﴿ لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ﴾ (النساء:٩٥) ، ذكر الرسعني سبب النزول في ابن أم مكتوم ، ـ وقد سبق في الفقرة الثانية من هذا المبحث ـ عندما شكى ضرارته لرسول الله ﷺ فنزلت ﴿ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ ﴾ ، ثم قال الرسعني مُعقباً على سبب النزول : « واعلم أن الآية على عمومها في جميع المجاهدين والقاعدين ، وإن نزلت على سبب خاص »[٢].

---

(١) رموز الكنوز ٢/٤٢٠ ، ٤٢١، والحديث أخرجه البخاري في كتاب التفسير ، باب قوله ﴿ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ ﴾ برقم : ٤٣٧١ و٤٣٧٢، ومسلم في كتاب صفات المنافقين ، باب قوله تعالى ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾ برقم : ٢٧٩٦، ولم أجد عبارة (فلما أخرجوه) في الصحيحين .

(٢) رموز الكنوز ١/٥٩٧ ، ٥٩٨، ومما يؤيد هذا حديث ابن مسعود (أن رجلاً أصاب من امرأة قُبلة ، فأتى النبي ﷺ فذكر ذلك له ، فنزلت ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ (هود:١١٤) ، فقال الرجل : يا رسول الله ألي هذه ؟ قال : لمن عمل بها من أمتي) ، أخرجه البخاري في كتاب التفسير ، باب قوله تعالى ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ برقم : ٤٤١٠ ، ومسلم في كتاب التوبة ، باب قوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ برقم : ٢٧٦٣ .

وفي قوله تعالى ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗ قَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَصۡلِحۡ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓ ﴾ (الأحقاف:١٥) ، قال الرسعني : «ذهب ابن عباس وعامة المفسرين إلى أن هذه الآية نزلت في أبي بكر الصديق ﷺ ، ويؤيد ذلك تعذّر إجرائها على العموم في كل إنسان ؛ لأنه ليس كل من بلغ أربعين سنة قال ﴿ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ . . . ﴾ ، ودعا بما أخبر الله تعالى عنه في الآية»[1]، وهذا بيان واضح من الرسعني أن الآية لا تفيد العموم ، إنما تقتصر على السبب ، وهذا قول فيه نظر ؛ لأن الرسعني قد جانب الصواب فيه فلا أعلم ما هو دليله على تعذر إجرائها على العموم في كل إنسان والصحيح أنها عامة ، فهي متناولة لذلك الشخص ولمن كان بمنزلته أيضاً[2]، فضلاً عن أن الآية فيها إشارة إلى من بلغ الأربعين أن يجدد التوبة والإنابة إلى الله ﷻ ويعزم عليها[3].

١١- استوعب الرسعني معظم أسباب النزول ـ كما تتبعتها في تفسيره ـ غير أنه أغفل بعضها ، وهذه بعض الشواهد .

ففي قوله تعالى ﴿ لَيۡسُواْ سَوَآءٗۗ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ أُمَّةٞ قَآئِمَةٞ يَتۡلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ وَهُمۡ يَسۡجُدُونَ ﴾ (آل عمران:١١٣) ، لم يذكر سبب نزول هذه الآية واكتفى بتفسيرها[4]، وقد جاء في سبب نزولها عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لما أسلم عبد الله بن سلام ، وثعلبة بن سعية ، وأسيد بن سعية ، وأسد ابن عبيد ، ومن أسلم من يهود معهم فآمنوا وصدقوا ورغبوا في الإسلام ، قالت أحبار اليهود وأهل الكفر منهم : ما آمن بمحمد واتّبعه إلا أشرارنا ، ولو كانوا

---

(١) رموز الكنوز ٢١٦/٧ .

(٢) مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية ٣٠ .

(٣) انظر : جامع البيان للطبري ١٦/٢٦، ١٧، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ٢٦٥/٧، وأسباب النزول ، علي بن أحمد الواحدي ٣٩٥ (تحقيق : كمال بسيوني ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١، ١٤١١هـ ، ١٩٩١م) .

(٤) رموز الكنوز ٢٦٩/١ وما بعدها .

خيارنا ما تركوا دين آبائهم وذهبوا إلى غيره ، فأنزل الله في ذلك ﴿ لَيْسُوا سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ [1]، وهناك سبب نزول آخر عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : أخّر رسول الله ﷺ صلاة العشاء ، ثم خرج إلى المسجد فإذا الناس ينتظرون الصلاة فقال : أما إنه ليس من أهل الأديان أحد يذكر الله هذه الساعة غيركم وأُنزلت هذه الآية ﴿ لَيْسُوا سَوَآءً ﴾ حتى بلغ ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴾ (آل عمران:١١٥) »[2].

وفي قوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ (النساء:٥٩) ، حيث لم يُشر الرسعني إلى حديث ابن عباس رضي الله عنهما الذي قال : نزلت هذه الآية في عبد الله بن حُذافة بن قيس إذ بعثه النبي ﷺ في سرية[3].

١٢- إيراده أسباب نزول ضعيفة السند وربما موضوعة ، وهذا ما لا ينبغي أن يُذكر في تفسير عُرف صاحبه بأنه محدّث يعتني بالأسانيد وصحة الروايات ، وربما يعتذر له ـ وإن كان عذراً ضعيفاً ـ روايته سبب النزول بسنده المتصل فهو مما يشفع له ؛ لأن من أسند فقد أبرأ ذمته كما قيل : كما في الأمثلة الآتية :

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم ٣/٧٣٧ ، وانظر : أسباب النزول للواحدي ١٢٢ .

(٢) أخرجه النسائي في الكبرى في كتاب التفسير ، باب قوله تعالى (ليسوا سواءً من أهل الكتاب) برقم : ١١٠٧٣ ، وابن حبان في كتاب الصلاة ، باب مواقيت الصلاة برقم : ١٥٣٠، وأحمد ١/٣٩٦ ، والواحدي في أسباب النزول ١٢٣ .

(٣) أخرجه البخاري في كتاب التفسير ، باب قوله تعالى (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول) برقم : ٤٣٠٨، ومسلم في كتاب الإمارة ، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية . برقم : ١٨٣٤ ، قال ابن حجر : لأنهم تنازعوا في امتثال ما أمرهم به ، وسببه أن الذين همّوا بأن يطيعوه وقفوا عند امتثال الأمر بالطاعة ، والذين امتنعوا أن عارضه عندهم الفرار من النار فناسب أن ينزل في ذلك ما يرشدهم إلى ما يفعلونه عند التنازع وهو الرد إلى الله والرسول . انظر فتح الباري ٨/٢٥٤ .

ففي قوله تعالى ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ (التوبة:٧٥)، قال الرسعني : «ذهب عامة المفسرين إلى أنه ثعلبة بن حاطب الأنصاري وكان من حديثه ما أخبرنا به . . . ، ثم ساق الحديث بسنده . . . عن أبي أمامة الباهلي ﷺ (أن ثعلبة بن حاطب الأنصاري أتى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله ، ادع الله أن يرزقني مالاً . . .)[1] ، ولم يتطرق الرسعني إلى أسباب النزول الأخرى لهذه الآية[2].

وفي قوله تعالى ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴾ (الأعلى:٦) ، قال الرسعني : «يروى عن ابن عباس أن النبي ﷺ كان إذا نزل عليه جبريل بالوحي يبادره بالقراءة خوف النسيان فنزلت هذه الآية»[3].

---

(١) رموز الكنوز ٢/٥٥٠-٥٥٣ ، وسبب النـزول أخرجه الطبري ١٠/١٨٩ ، وابن أبي حاتم ٦/١٨٤٧ برقم : ١٠٤٠٦، والواحدي ٢٥٧، والغريب أن الطبري وابن كثير لم يعلقا بشيء على القصة واكتفيا بنقل القصة بسندها ، وإن كان الطبري قد ذكر سبب نزول آخر لم يعين فيه ما نزلت الآية بسببه ، وقد أنكر القرطبي سبب نزول الآية في ثعلبة فقال : وثعلبة بدري أنصاري وممن شهد الله له ورسوله بالإيمان ، وقال ابن حجر في الإصابة ؛ وفي كون صاحب هذه القصة ـ إن صحّ الخبر ولا أظنه يصحّ ، هو البدري المذكور نظر ـ ، وقد تأكدت المغايرة بينهما بقول ابن الكلبي : إن البدري استشهد بأُحد ، ثم قال فمن يكون بهذه المثابة كيف يعقبه الله نفاقاً في قلبه ، وينـزل به ما نزل ، والظاهر أنه غيره ، وسبب النـزول في سنده معان بن رفاعة السلامي ، قال عنه ابن حجر : ليّن الحديث ، كثير الإرسال . انظر : الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٨/٢٠٩، ٢١٠ ، والإصابة لابن حجر ١/٤٠١ (دار نهضة مصر ، القاهرة ، ١٣٨٣هـ، ١٩٧٠م) ، وتقريب التهذيب لابن حجر ٥٣٧ .

(٢) انظر أسباب النـزول الأخرى في : جامع البيان للطبري ١٠/١٩٠، ١٩١ ، زاد المسير لابن الجوزي ٣/٤٧٤ .

(٣) رموز الكنوز ٨/٥٩٠ ، والحديث أخرجه الطبراني في الكبير ٢/١٢٠ برقم : ١٢٦٤٩ (تحقيق حمدي السلفي ، بدون سنة طبع) ، وقال الهيثمي : وفيه جويبر وهو ضعيف ، انظر : مجمع الزوائد ٧/١٣٦ (دار الكتاب العربي ، بيروت ، ١٤٠٧هـ ، ١٩٨٧م) ، وقال ابن حجر : جويبر راوي التفسير ضعيف جداً ، انظر : تقريب التهذيب ١٤٣ .

إن رواية الرسعني سبب النزول بصيغة التمريض (يُروى) لا تكفي دون التنبيه إلى ضعف هذا الحديث .

١٣- ومما ينبغي الإشارة إليه في ختام هذا المبحث أن الرسعني ـ رحمه الله ـ قد استخدم الإحالات في سبب النزول خشية التكرار في بعض المواضع[١]، كما يشير بصيغة رُوي أو قيل عند ذكره سبب نزول يُوحي بضعف الرواية وإن لم يصّرح بذلك[٢].

* * *

---

(١) انظر على سبيل المثال في رموز الكنوز ٦٢٥/١ ، ٢٤٥/٤ ، ٣٤٨/٤ .

(٢) رموز الكنوز ١٥١/١ ، ١٧/٥ .

obeikandl.com

المبحث الرابع

موقفه من الإسرائيليات

أولاً : مدلول كلمة إسرائيليات

يراد من كلمة الإسرائيليات ـ التي هي جمع لمفردة إسرائيلية[1] ـ أنها قصة أو حادثة أو أسطورة تُروى عن مصدر إسرائيلي[2]، أو هي الأخبار المنقولة عن أهل الكتاب من غير طريق القرآن والسنن الثابتة عن النبي ﷺ ، كالذي يُحكى عن كعب الأحبار ، ووهب بن مُنبِّه وغيرهما[3].

ثانياً : أقسام الإسرائيليات

الأحاديث الإسرائيلية تُذكر للاستشهاد لا للاعتقاد ، وهي على ثلاثة أقسام :

١- ما علمنا صحته مما بأيدينا مما يشهد له بالصدق ، فذلك صحيح .

٢- ما علمنا كذبه بما عندنا مما يخالفه .

---

(١) نسبة إلى إسرائيل ، والنسبة في مثل هذا تكون لعجز المركب الإضافي لا لصدره ، وإسرائيل هو : يعقوب عليه السلام ـ أي عبد الله ـ ، وبنو إسرائيل هم أبناء يعقوب ، ومن تناسلوا منهم فيما بعد ، إلى عهد موسى عليه السلام ، ومن جاء بعده من الأنبياء حتى عهد عيسى عليه السلام وحتى عهد نبينا محمد ﷺ . انظر : الإسرائيليات في كتب التفسير ، دكتور محمد محمد أبو شهبة ١٢ (مكتبة السنة ، القاهرة ، ط٤ ، ١٤٠٨هـ).

(٢) الدخيل والإسرائيليات في تفسير القرآن ، دكتور سمير عبد العزيز شليوة ١٤ (مطبعة الجبلاوي ، ١٤٠٤هـ ، ١٩٨٣م) .

(٣) المقدمات الأساسية في علوم القرآن ، عبد الله بن يوسف الجديع ٣٢٣ (مؤسسة الريان ، بيروت ، ط٣ ، ١٤٢٧هـ ، ٢٠٠٦م) .

٣- ما هو مسكوت عنه ، لا من هذا القبيل ، ولا من هذا القبيل ، فلا نؤمن به ولا نكذبه ، وتجوز حكايته لما تقدم ، وغالب ذلك مما لا فائدة فيه تعود إلى أمر ديني[١]، وهذا هو التقسيم الذي يهمنا في باب التفسير .

وهناك من قَسّم الإسرائيليات من حيث الموضوع أو من ناحية السند والمتن[٢]، ويمكن القول إن تسرب تلك الإسرائيليات إلى كتب التفسير يرجع زمنيًا إلى عهد الصحابة رضي الله عنهم ، ونظراً لاتفاق القرآن مع التوراة والإنجيل في ذكر بعض المسائل مع فارق الإيجاز في القرآن ، والإطناب في التوراة والإنجيل ، فكان الصحابي يسأل عن بعض ما طواه القرآن ولم يتعرض له ، فلا يجد سوى النفر الذين دخلوا في الإسلام ، غير أن سؤالهم لم يكن في كل شيء ، ولم يقبلوا منهم كل شيء ، بل كانوا يسألون عن أشياء لا تعدو أن تكون توضيحاً للقصة ، كما أنهم لم يسألوا عما يتعلق بالعقيدة أو بالأحكام ، والصحابة لم يخرجوا في هذا عن دائرة الجواز التي حدّها لهم رسول الله ﷺ وعملوا بما فهموه من الإباحة[٣]، في قوله ﷺ : (بلِّغوا عني ولو آية وحدِّثوا عن بني إسرائيل ولا حرج ، ومن كذب عليَّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار) [٤]، كما أنهم لم يخالفوا قول رسول الله ﷺ :(لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم

---

(١) مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية ٨١ ، وانظر كذلك : الإسرائيليات في كتب التفسير ، دكتور محمد أبو شهبة ١٠٦، ١٠٧ .

(٢) هو الدكتور رمزي نعناعة في رسالته (الإسرائيليات وأثرها في كتب التفسير) حيث قسّمها باعتبار سندها إلى صحيح من ناحية السند والمتن ، وضعيف من ناحية سنده أو متنه ، وقسم آخر باعتبار موضوع الخبر إلى ما يتعلق بالعقائد ، وما يتعلق بالأحكام ، وما يتعلق بالمواعظ والقصص ، وقسم ثالث وهو الذي يعنينا باعتبار موافقته لشريعتنا أو مخالفته ، وهي التي سبق ذكرها بأقسامها الثلاثة . انظر : الإسرائيليات وأثرها في كتب التفسير ، دكتور رمزي نعناعة ٧٦-٨٤ (دار القلم ، دمشق ، ط١ ، ١٣٩٠هـ ، ١٩٧٠م)

(٣) التفسير والمفسرون ، دكتور محمد حسين الذهبي ١٥٠- ١٥٢ بتصرف .

(٤) أخرجه البخاري عن عبد الله بن عمرو في أحاديث الأنبياء ، باب ما ذكر عن بني إسرائيل برقم : ٣٢٧٤ .

وقولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا . .)[1]، قال ابن حجر : «أي لا ضيق عليكم في الحديث عنهم ؛ لأنه كان تقدّم منه ﷺ الزجر عن الأخذ عنهم ، والنظر في كتبهم ، ثم حصل التوسع في ذلك ، وكأن النهي وقع قبل استقرار الأحكام الإسلامية والقواعد الدينية خشية الفتنة ، ثم لما زال المحذور وقع الإذن في ذلك لما في سماع الأخبار التي كانت في زمانهم من الاعتبار»[2].

ولعل الصحابة رضي الله عنهم فهموا أن هناك حرجاً من قوله تعالى ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (العنكبوت:٥١)، فجاءت الرخصة من قوله ﷺ : (حدِّثوا عن بني إسرائيل ولا حرج)[3]، فترّخص الصحابة في الحديث عن بني إسرائيل والذي كان في حدود ضيقة ، وهذا الذي ترخَّصوا فيه اتسم بسمات هي :

١- القلة ، فإذا استبعدت ما لا تثبت أسانيدُه إليهم ، فإنه يخلُص منها قدر قليل جدًّا .

٢- أنه أُخذ عن مُسلمَة أهل الكتاب كعبد الله بن سلام ، وكعب الأحبار وليس هذا كمن يتلقى عن الأحبار والرهبان وهم على دينهم .

٣- لم يكن الصحابة يتلقَّون ما يسمعونه من ذلك بالتسليم دون نقدٍ وتثبُّت[4].

ولا تعارض في هذا وبين قول ابن عباس رضي الله عنهما : (يا معشر المسلمين ، كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء ، وكتابكم الذي أنزل الله على

---

(١) أخرجه البخاري عن أبي هريرة في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ، باب قول النبي ﷺ (لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء) برقم : ٦٩٢٨ ، وفي كتاب التوحيد ، باب ما يجوز من تفسير التوراة . . . برقم : ٧١٠٣ .

(٢) فتح الباري لابن حجر العسقلاني ٤٩٨/٦ .

(٣) سبق تخريجه ص ٢٦٤ .

(٤) المقدمات الأساسية في علوم القرآن لعبد الله الجديع ٣٢٦، ٣٢٧ .

نبيكم أحدث الأخبار بالله ، محضاً لم يشُب[1]، وقد حدّثكم الله أن أهل الكتاب بدّلوا من كتب الله وغيّروا ..)[2]، فحديث ابن عباس أراد أهل الكتاب الذين لا زالوا على دينهم ولم يُسلموا ، أما تلك السمات ـ التي سبق الكلام عنها ـ فهي لمن دخل من أهل الكتاب في الإسلام ، والله أعلم .

والخلاصة في هذا أن الأقسام الثلاثة التي سبق ذكرها في أنواع الإسرائيليات هي رأي المحققين من أهل العلم .

وإن كان من كلمة أخيرة في هذا الموضوع فإنه ينبغي على المفسر أن يكون حذراً وناقداً فيما ينقل من هذه الإسرائيليات كي يتجنب الوقوع في الخطأ وإن ذكرها فلا ينبغي أن يمرَّ عليها دون تعقيب ونقد ؛ لأن عدم ذلك يعني قبوله بها والرضا بما جاء فيها[3].

وبعد هذه الوقفة لابد لنا من التعرف على منهج الحافظ الرسعني في عرض تلك القصص والأخبار الإسرائيلية في تفسيره الذي سنبينه بالنقاط الآتية :

١- تصريح الرسعني في التفسير بأن الخلاف في بعض المنقول عن الإسرائيليات ، مما لا ينبني عليه عمل ، ويذكر في هذا الصدد ما ورد بشأن (الخضر) وهل كان ملكاً أم بشراً وهل كان نبيًّا أم لا ؟ ويبين أنه مما لا يُجدي فائدة ولا يجلب نفعاً في هذا وأمثاله ، ولكنا نذكر ما قيل[4]، وهو بهذا يقرر منهجه في القصص والروايات الإسرائيلية القائم

---

(١) أي : لم يخلط بغيره .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد ، باب قوله تعالى ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ برقم : ٧٠٨٥ .

(٣) « لقد كان لهذه الإسرائيليات أثر كبير في الطعن بهذا الدين من قبل أعدائه ، حيث فتحت لهم باباً ينفذون من خلاله للطعن بالشريعة الغرّاء ، والرسول ﷺ ، ولها خطر على الإسلام والمسلمين حيث مزقتهم فِرقاً وأحزاباً ، وشغلت أذهان المسلمين وصرفتهم عن ما في القرآن من أحكام ومبادئ . . . » انظر : الإسرائيليات وأثرها في كتب التفسير ، دكتور رمزي نعناعة ٤٢٨ ، ٤٢٩ .

(٤) رموز الكنوز ٣٢٤/٤ .

على ذكر ما قيل ، وأن الخلاف بمثل هذه الأمور لا فائدة منه ، ولكنَّ قوله : «نذكر ما قيل» لا يُسَلَّم له به ، فمِثلُه كمحدّث ومفسر ينبغي أن يذكر ما قيل مقروناً بالنقد والتمحيص ، وإلا فسيؤاخذ على ما ينقل ويُعدّ حاطب ليل ، وهو ما لا يليق بإمام كالرسعني ، وهذا ما سنلاحظه فيما بعد .

٢- هذه بعض الأمثلة التي علّق عليها الرسعني ولم يقبلها ، وأشار إليها بعدم الرضا والقبول ، وهو ما يُعدّ في إيجابيات تفسيره .

المثال الأول : في قصة يوسف عليه السلام وتفسيره للبرهان الوارد في الآية الكريمة ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ﴾ (يوسف:٢٤) ، قال الرسعني : «والذي عليه جمهور أهل المعاني والنظر الصحيح : أن البرهان الذي رآه زواجر العقل والدين والحجج المأخوذة على المكلفين من اجتناب المحارم ، وقد نقلوا في تفسير البرهان أقوالاً يقطع العقل بفسادها منها : أنه بدت بينهما كفّ ليس لها عضُد ولا مِعصم ، وفيها مكتوب ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ (الإسراء:٣٢)، فقام هارباً وقامت ، فلما ذهب عنهما الروع عادا ، فلما قعدا إذا بكفٍّ قد بدت فيما بينهما فيها مكتوب ﴿ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ (البقرة:٢٨١)، فقاما ثم عادا ، فقال الله تعالى لجبريل أدرك عبدي قبل أن يُصيب الخطيئة . . . إلخ ، ثم قال : ورووا عن وهب أنه قال : ظهرت تلك الكفّ وعليها مكتوب بالعبرانية ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ (الرعد:٣٣)... إلخ ، ثم عقّب الرسعني تعقيباً جميلاً وجزم ـ رحمه الله ـ بفساد وبطلان هذه الأقوال فقال : «وهذه الوجوه وأمثالها لا تثبت على محكّ النقل ، ولا عند حاكم العقل ، وإنما هي مما يروِّج بها القصّاص مجالسهم ، ويجتلبون بها عقول العامة ، وليست من الصحة والتحقيق في شيء ، والذي يصحح ما ذكرناه ويفسد قولهم ، قول امرأة العزيز حيث أفصحت بسرها ﴿ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ﴾(يوسف:٣٢)،

وهذا النبأ موضوع للمبالغة ، ومثله : استمسك ، واستفحل الخطب ، واستوسع الفتق»[1].

المثال الثاني : كذلك نجد الرسعني يسلك نفس هذا المسلك عند ذكره قصة داود عليه السلام فيردّها ولا يقبل ما جاء فيها ، ففي قوله تعالى ﴿ **وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ** ﴾ (ص:٢١) قال الرسعني : « إن داود عليه السلام اطّلع فإذا بامرأة تغتسل ، فنظر إلى أحسن خلق الله ، ونظرت المرأة وإذا وجه رجل فنشرت شعرها فغطّت جسدها ، فزاده ذلك بها إعجاباً ، فرجع إلى مكانه وفي نفسه منها ما في نفسه ، فبعث لينظر من هي ، فرجع الرسول إليه فقال : هي بشايع ابنة حنانا وزوجها أوريا بن صوري وهو في البلقاء[2] مع ابن أخت داود محاصري قلعة ، فكتب داود إلى ابن أخته كتاباً إذا جاءك كتابي هذا فمُر أوريا بن صوري فليحمل التابوت وليتقدم أمام الجيش ، فقال : سمعاً وطاعة ، فحمل التابوت وسار أمام أصحابه فقُتل ، وكتب ابن أخت داود عليه السلام بذلك إلى داود عليه السلام ، فلما انقضت عدة المرأة أرسل إليها داود عليه السلام فخطبها فتزوجها[3]، ثم نقل كلاماً طويلاً ، وعقّب الرسعني على هذه القصة قائلاً : «وقد أنكر جماعة من المحققين صحة هذه الروايات ، تنزيهاً لمنصب النبوة عن مثل هذه الأمور التي لا تصح إضافتها إلى آحاد الصلحاء فضلاً عن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام»[4]، وقد أحسن الرسعني صنعاً في تعقيبه وردّه هذه القصة .

٣- يكتفي أحياناً بما يرد في الصحاح أو السنن من ذكر للقصص ، وأحياناً ينقل ذلك بسنده المتصل ، كما في الأمثلة الآتية :

---

(١) رموز الكنوز ٣/٣١٣ ، ٣١٤ .

(٢) هي : محافظة في الأردن وعاصمتها السَّلط ، وتبعد عن العاصمة عمّان ٣٠كم ، وتقع على مرتفعات البلقاء المؤدية من عمّان إلى القدس . انظر : معجم البلدان لياقوت الحموي ١/٥٧٩ .

(٣) رموز الكنوز ٦/ ٤٦٥ ، ٤٦٦ بتصرف .

(٤) المصدر السابق ٦/٤٧٠ .

ففي قوله تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴾ (الكهف:٦٠)، ذكر الرسعني حديث سعيد بن جبير أنه سأل ابن عباس فقال له : إن نوفاً البكالي[١] يزعم أن موسى صاحب الخضر ليس هو موسى صاحب بني إسرائيل ، فقال ابن عباس : كذب عدو الله ، حدثنا أُبي بن كعب أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : (إن موسى عليه السلام قام خطيباً في بني إسرائيل فسُئل أي الناس أعلم؟ فقال أنا ، فغضب الله عليه إذ لم يردّ العلم إليه فأوحى الله تعالى إليه أن لي عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك . . . إلخ)[٢].

وفي قوله تعالى ﴿ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴾ (الكهف:٩٧) ، ساق الرسعني حديثاً بسنده عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال : (إن يأجوج ومأجوج ليحفرون السدَّ كل يوم حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذي عليهم ارجعوا فستحفرونه غداً . . .)[٣].

٤- يترك الرسعني التعقيب على بعض القصص ويكتفي بسردها ، كما في هذين المثالين :

المثال الأول : في قوله تعالى ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ (آل عمران:٥٥)، قال الرسعني : « قال

---

(١) هو : نوف بن فضالة الحميري البكالي ، أبو يزيد ويقال : أبو عمرو الشامي ، من أهل دمشق ، وقيل من فلسطين ، وكان إماماً لأهل دمشق ، ربيب كعب الأحبار ، ويعد من التابعين ، قتل يوم الطوانة . انظر : ترجمته في تهذيب الكمال للمزي ٦٥/٣٠ ، وتاريخ دمشق لابن عساكر ٣٠٩/٦٢ .

(٢) رموز الكنوز ٣١٣/٤-٢١٦ ، وقد ساق الرسعني الحديث بسنده من ثلاثة طرق ، ومدار الحديث عن سفيان بن عيينة ، والحديث أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء ، باب حديث الخضر مع موسى برقم : ٣٢١٩ ، ومسلم في كتاب الفضائل ، باب من فضائل الخضر برقم : ٢٣٨٠ .

(٣) رموز الكنوز ٣٧١/٤ ، والحديث أخرجه الترمذي في كتاب التفسير ، باب من سورة الكهف برقم : ٢١٥٣ ، وابن ماجه في كتاب الفتن ، باب فتنة الدجال وخروج عيسى عليه السلام برقم : ٤٠٨٠ ، وأحمد ٥١٠/٢ ، وقال الترمذي : هذا حديث حسن غريب .

وهب : طرقوا عيسى في بعض الليل ليصلبوه ، فلما أرادوا صلبه أظلمت الأرض ، فأرسل الله الملائكة فحالوا بينه وبينهم ، وصلبوا رجلاً يُقال له يهوذا ، وهو الذي دلّهم عليه . . . إلخ »[1].

المثال الثاني : في قصة سليمان عليه السلام وفي قوله تعالى ﴿ **قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ** ﴾(النمل:٤١)، قال الرسعني : « قال العلماء بالتفسير : كرهت الجن أن يتزوج سليمان بلقيس خوفاً أن تفضي إليه بأسرارهم ؛ لأنها كانت بنت جنيّة ، وخافوا أن يولد له منها ولد يجتمع له فطنة الجن والإنس ، فيخرجوا من ملك سليمان إلى ملك هو أشد وأفظع فنزكوها[2]، وأساءوا القول فيها وقالوا : إنها شَعراء الساقين ، وإن رجليها كحافر الحمار ، وإن في عقلها شيئاً ، فاختبر عقلها بتنكير عرشها واتخذ الصرح لينظر إلى ساقيها ورجلها »[3].

والغريب أن الرسعني لم يُعقب على هذه القصة مع ما فيها من مآخذ ، ولا يكفي أن يعذر أنه أحالها بقوله : « قال العلماء بالتفسير » ، وليته كرّ كلامه في قصة داود عليه السلام ؛ لأن مقام الأنبياء رفيع وسليمان عليه السلام الذي أُوتي من العلم والفهم لم يكن ليصغي لكلام الجن ، فضلاً عن النظر إلى امرأة لا تحل له ، « والصحيح أن عمل الصرح ؛ ليريها ملكاً هو أعز من ملكها وسلطاناً هو أعظم من سلطانها »[4]، ولاختبار رجاحة عقلها ، قال ابن عباس : « لينظر إلى عقلها ، فوُجدت ثابتة العقل »[5].

---

(١) رموز الكنوز ١/١٩٥ ، والقصة ذكرها الثعلبي في تفسيره الكشف والبيان ٢/٧٠.

(٢) أي : فعابوها أو طعنوا بها .

(٣) رموز الكنوز ٥/٤٧٢ ، والقصة ذكرها الطبري في تفسيره جامع البيان ١٩/١٦٩ ، وابن الجوزي في زاد المسير ٦/٧٦ ، والثعلبي في الكشف والبيان ٤/٤٩٨ .

(٤) قاله : وهب بن منبه ، انظر : جامع البيان للطبري ١٩/١٦٨ ، وذكره القرطبي في تفسيره عن مجاهد ، انظر : الجامع لأحكام القرآن ١٣/٢٠٨ .

(٥) جامع البيان للطبري ١٩/١٦٦ .

ثالثاً : قصص يتعلق بسيرة نبينا محمد ﷺ

أ- أورد الرسعني في تفسيره الكثير من أخبار سيرة المصطفى ﷺ ، كالحديث عن غزوة أحد[1]، وكذلك غزوة بدر ، وأحياناً يجعل عنواناً ويقول « الإشارة إلى مغازيه ﷺ » ، وحدد تلك الغزوات بالترتيب الزمني[2].

ب ـ أورد قصصاً بسنده المتصل كما في غزوة أحد[3]، مما يدلل على اهتمامه وعنايته بالأسانيد .

ج ـ ذكره وإيراده قصصاً من سيرة النبي ﷺ دون تعقيب عليها ، كما في قصة زواج النبي ﷺ من زينب بنت جحش رضي الله عنها ، وهو مما يؤاخذ عليه الرسعني ، ففي قوله تعالى ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ﴾(الأحزاب:٣٧)، قال الرسعني : « ثم إن النبي ﷺ أتى بيت زيد بن حارثة فأبصر زينب قائمة ، فوقعت في قلبه ، فقال : سبحان الله مُقلّب القلوب ، وذلك أن نفسه قبل ذلك كانت تجفو عنها ، فسمعت زينب تسبيحه ، فذكرته لزيد ففطن ، وألقى الله في نفسه كراهة صحبتها والرغبة عنها لرسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله إني أُريد أن أفارق صاحبتي . . . إلخ القصة »[4]، وكم كنت أرجو أن يُعلّق الرسعني ولو بكلمة كي يخرج من هذه الهفوة التي وقع فيها بإيراده هذه القصة التي فيها طعن بمقام النبي ﷺ ، وليته فعل كما ردّ قصة زواج داود عليه السلام من زوجة قائد الجند وعدّ ذلك أمراً لا يليق بأحد الصالحين فضلاً عن الأنبياء والمرسلين .

د ـ قصة الغرانيق وإيرادها دون تعليق أو توضيح لما فيها ، ففي قوله تعالى ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ

---

(١) رموز الكنوز ١/٢٧٩-٢٨١ .
(٢) المصدر السابق ١/٢٨٤-٢٨٦ .
(٣) المصدر السابق ١/٣١٧-٣٢٢ ، وقد أعرضت عن ذكر القصة بسندها للاختصار .
(٤) المصدر السابق ٦/١٦١ ، ١٦٢ ، ومعلوم أن زواجه ﷺ من زينب كان لتشريع إلهي ؛ لإبطال عرف كان سائداً أن المتبني لا يتزوج زوجة متبنيه ، فسبحان الله الذي كتب الكمال لكتابه العزيز .

أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (الحج:٥٢)، قال الرسعني : « قال محمد بن كعب القرظي وغيره : تمنّى رسول الله ﷺ أن لا يأتيه من الله شيء يُنفّر عنه قومه ، لعله يتخذ ذلك سُلّماً إلى استمالتهم واستنزالهم عن غيهم ، فاستمرَّ به ما تمناه ، حتى نزلت عليه سورة النجم وهو في نادي قومه وذلك التمني في نفسه ، فأخذ يقرؤها فلما بلغ قوله ﴿ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴾ (النجم:٢٠) ، ألقى الشيطان في أمنيّته التي تمناها على سبيل اللهو والغلط فقال : (تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لتُرتجى) [(١)] »[(٢)].

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير عن ابن عباس ٥٣/١٢ برقم : ١٢٤٥٠ ، والبزار عنه : ٢٩٦/١١،٢٩٧ ، وقال : « هذا الحديث لا نعلمه يروى عن النبي ﷺ بإسناد متصل عنه يجوز ذكره إلا بهذا الإسناد » وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير ٢٥٠٠/٨ برقم : ١٣٩٩٨ ، والطبري ١٨٧/١٧ ، وقال ابن كثير عن هذه الروايات : « وكلها مرسلات ومنقطعات » ، انظر : تفسير ابن كثير ٤٤٠/٥،٤٤١ ، وقد ردّ هذه القصة جمع من العلماء المحققين كالقاضي عياض والقرطبي وابن العربي وابن الجوزي وغيرهم ، وللشيخ الألباني رسالة سماها نصب المجانيق في إبطال قصة الغرانيق ، وقد تتبع القصة وطرق رواياتها الحافظ ابن حجر في الفتح وقال : « وكلها سوى طريق سعيد ابن جبير إما ضعيف وإلا منقطع ، لكن كثرة الطرق تدل على أن للقصة أصلاً ... وإذا تقرر ذلك تعين تأويل ما وقع فيها مما يستنكر وهو قوله (ألقى الشيطان على لسانه تلك الغرانيق العلى ...)، فإن ذلك لا يجوز حمله على ظاهره ؛ لأنه يستحيل عليه ﷺ أن يزيد في القرآن عمداً ما ليس منه وكذا سهواً . . . » انظر فتح الباري ٤٣٨/٨-٤٤٠ ، وما ذهب إليه ابن حجر من أن القصة لها أصل لعله أراد ما أخرجه البخاري عن ابن عباس في كتاب التفسير ، تفسير سورة الحج ، قال : (إذا حدّث ألقى الشيطان في حديثه ، فيبطل الله ما يلقي الشيطان ويحكم آياته) ، وقد سلك العلماء في توجيه هذه القصة عدة مسالك من أحسنها ما قاله القاضي عياض في الشفا : « إن النبي ﷺ كان كما أمره ربه يرتل القرآن ترتيلاً ويفصل الآي في قراءته كما رواه الثقات عنه ، فيمكن ترصد الشيطان لتلك السكتات ودسّه فيها ما اختلقه من تلك الكلمات محاكياً نغمة النبي ﷺ يسمعه من دنا إليه من الكفار فظنوها من قول النبي ﷺ وأشاعوها » ، انظر : الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض بن موسى الأندلسي ٣٠٠/٢ (تحقيق : مجموعة ، مؤسسة علوم القرآن ، دمشق ، ١٣٩٢هـ)، وقد ارتضى هذا التوجيه جمع من العلماء . انظر : الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٧٩/١٨ وما بعدها ، وانظر : المصادر السابقة .

(٢) رموز الكنوز ٧٨/٥ ، ٧٩ .

ومما يُثير الاستغراب أن الرسعني لم يتطرق بشيء من التعليق على هذه القصة أو سندها ؛ كونه محدثاً يهتم بنقد الرواية وبيان سندها ، ولم يذكر توجيهاً مقنعاً يبعد وجه الطعن بمقام النبي ﷺ وهذا مما يؤاخذ عليه .

٥- وقد اعتنى الرسعني بذكر قصص وأخبار الزهاد[١]، والملوك والأمراء[٢]، وكما أخبر عن قصص حدثت أمامه[٣]، فضلاً عن قصص الرؤى في المنام[٤]، واكتفيت عن ذكرها بما تقدم مما هو نافع في بيان منهجه .

٦- عنايته أحياناً بفقه القصة ، فتراه يستنبط من القَصَص الأحكام والمعاني والعبر ، كما في المثال الآتي :

ففي قوله تعالى ﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴾ (الأنبياء:٧٨)، قال الرسعني : « وفي هذه القصة بيان ظاهر وبرهان باهر على جواز كون النبي ﷺ وغيره من الأنبياء متعبدين بالاجتهاد فيما لا نصّ فيه ، وأنكر ذلك قوم ، لكونهم قادرين على استكشاف ذلك بطريق الوحي . . . ، ثم قال : وفي هذه القصة دليل على أن الحق في قول واحد من المجتهدين وهو مذهبنا »[٥].

* * *

(١) رموز الكنوز ٨٩/٤ .
(٢) المصدر السابق ٢٤٤/٤ .
(٣) المصدر السابق ٤٤٧/٣ ، ٣٤١/٥ ، ١٨٩/٨ .
(٤) المصدر السابق ٤٠٨/٢-٤١٢ ، ٤١٤ .
(٥) المصدر السابق ٦٤٥/٤ ، وانظر كذلك في ٢١٨/٥ ، ٣١٩/٥ .

obeikandl.com

المبحث الخامس

آراؤه في علوم القرآن

من الجدير بالذكر الإشارة إلى أهمية دراسة علم (علوم القرآن) ، والإلمام به كعلم يستعين المفسر به على تفسير القرآن ، وهو علم يشمل كل ما يخدم القرآن أو يستند إليه أو يتعلق به ، أو هو مباحث تتعلق بالقرآن الكريم من ناحية نزوله ، وترتيبه ، وجمعه ، وكتابته وقراءته وتفسيره ، وإعجازه ، وناسخه ومنسوخه ، ودفع الشُّبَه عنه ونحو ذلك[1].

لقد اعتنى الرسعني كغيره من المفسرين بهذا العلم ؛ لأن قواعد التفسير لا تقوم إلا من خلاله كما هو معلوم ، ودراسة منهج الرسعني وبيان آرائه في علوم القرآن ليس المقصود منها استقصاء جميع ما تناوله أو تطرّق إليه في تفسيره ، فهذا أمر من الصعوبة بمكان ؛ لأنه يحتاج لمساحة واسعة من البحث وهو بعيد المنال ، فضلاً عن كثرة المباحث التي أشار إليها ـ رحمه الله ـ وهذا ما جعل الباحث ينتقي بعضاً من تلك العلوم للوقوف على بيان منهج الرسعني ، وكيفية تعامله مع هذا العلم وتوظيفه في خدمة التفسير ، وهذه بعض أقسام هذه العلوم التي سأتناولها بالبحث[2] .

أولاً : مدة نزول القرآن ، وبدء الوحي ، وأول ما نزل وآخره .

ثانياً : فضائل السور والآيات .

ثالثاً : المكي والمدني .

رابعاً : النسخ في القرآن .

---

(١) مناهل العرفان للزرقاني ٢٩/١ .

(٢) من أشهر كتب علوم القرآن المطبوعة البرهان للزركشي ، والإتقان للسيوطي ، ومن الكتب الحديثة المطبوعة ، مناهل العرفان للشيخ الزرقاني ، ومباحث في علوم القرآن للدكتور صبحي الصالح ، وبالعنوان نفسه للشيخ مناع القطان وغيرها ، وهناك من أفرد لكل من علوم القرآن مصنّفاً ذكرها السيوطي في الإتقان عند تناوله تلك العلوم .

أولاً : مدة نزول القرآن ، وبدء الوحي ، وأول ما نزل وآخره

١- مدة نزول القرآن وكيفية نزوله

يرى الرسعني ـ رحمه الله ـ أن مدة نزول القرآن هي عشرون سنة ، وقد ذكر ذلك بقوله « القرآن نزل نجوماً متفرقة في عشرين سنة بخلاف سائر الكتب »[١]، وهذا القول ورد في بعض الروايات الصحيحة[٢]، وهو قول مرجوح ، والأرجح منه الذي عليه جمهور أهل العلم أن مدة نزول القرآن هي ثلاثة وعشرون عاماً ، ثلاثة عشر منها في مكة ، وعشرة في المدينة ، وقد تُوفي رسول الله ﷺ وعمره ثلاث وستون سنة ، وكان عمره يوم بدأ الوحي بالنزول عليه أربعون عاماً [٣].

ويميل الرسعني إلى أن القرآن نزل في ليلة القدر من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا جملة واحدة ثم نزل بعد ذلك مفرّقاً[٤] على حسب الوقائع[٥] على

---

(١) رموز الكنوز ٦٤٦/١ .

(٢) كحديث أبي سلمة قال : أخبرتني عائشة وابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قالا : لبث النبي ﷺ بمكة عشر سنين ينزل عليه القرآن ، وبالمدينة عشر سنين . أخرجه البخاري في كتاب فضائل القرآن ، باب كيف نزل الوحي وأول ما نزل برقم : ٤٦٩٤ .

(٣) قال ابن حجر : وهذا ظاهره أنه ﷺ عاش ستين سنة إذا انضمَّ إلى المشهور أنه بُعث على رأس الأربعين ، لكن يمكن أن يكون الراوي ألغى الكسر ، والمعتمد أنه عاش ثلاثاً وستين ، وما يخالف ذلك إما أن يحمل على إلغاء الكسر في السنين ، وإما على جبر الكسر في الشهور ، ويمكن أن يُجمع بين الحديثين أنه بُعث على رأس الأربعين ، فكانت مدة وحي المنام ستة أشهر إلى أن نزل عليه الملك في شهر رمضان من غير فترة ، ثم فتر الوحي ، ثم تواتر وتتابع فكانت مدة تواتره وتتابعه بمكة عشر سنين من غير فترة . . . ، انظر فتح الباري ٤/٩ .

(٤) رموز الكنوز ٢٣٢/٤، ١٥٩/٧، وقد أشار الرسعني إلى كيفية نزول القرآن في ليلة القدر وتفصيل ذلك في مقدمة الكتاب وهي مفقودة .

(٥) القرآن لم ينزل كله على حسب الوقائع كما قال الرسعني ، وإنما نزل ابتداءً ، وبعض منه نزل بسبب وليس كله ، وعليه فكلام الرسعني فيه نظر ولا يؤخذ على إطلاقه ، والله أعلم .

النبي ﷺ ، كما يرى الرسعني أن الحكمة من نزول القرآن مفرّقاً على الناس ؛ ليتدبروه ويفهموه[1].

٢- بدء الوحي وكيفية نزوله

قال الرسعني : « اختلف العلماء في الشهر الذي ابتُدئ فيه الوحي ، فقال أبو هريرة رضي الله عنه : نزل جبريل على النبي ﷺ بالرسالة يوم سبعة وعشرون من رجب ، وهو أول يوم هبط فيه ، وقال ابن إسحاق : ابتُدئ رسول الله ﷺ بالتنزيل في شهر رمضان ، فأما اليوم الذي ابتُدئ فيه بالوحي فقد روى مسلم في صحيحه أن النبي ﷺ سُئل عن الصوم يوم الاثنين ، قال : « ذاك يوم وُلدت فيه ، ويوم بُعثت ، أو أُنزل عليَّ فيه . . . »[2].

كما تطرق الرسعني إلى كيفية نزول الوحي على الأنبياء والرسل عليهم السلام ففي قوله تعالى ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾ (الشورى:٥١) ، قال : « وهو على أوجه ثلاثة :

١- في منام ، أو بطريق الإلهام كما أوحى إلى إبراهيم عليه السلام في ذبح ولده ، وإلى أمِّ موسى بما قذف في قلبها[3].

٢- بأن يسمع تعالى كلامه ولا يراه ، كما كلّم الله تعالى موسى عليه السلام .

---

(١) رموز الكنوز ٢٣٢/٤ .

(٢) رموز الكنوز ٣٤٨/٨ ، ٣٤٩ ، والحديث أخرجه مسلم عن أبي قتادة الأنصاري في كتاب الصيام ، باب استحباب صيام ثلاثة أيام من كل شهر . . . برقم : ١١٦٢ .

(٣) قول الرسعني : « وإلى أم موسى بما قذف في قلبها » فيه نظر ؛ لأن أمّ موسى لم تكن نبيّة ، ولم يبعث الله تعالى أنبياء من النساء لقوله تعالى ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالاً نُّوحِيٓ إِلَيْهِمْ ﴾ (الأنبياء:٧)، وهو إلهام فطري للإنسان ، وأما الوحي في المنام للأنبياء فهو يقين ووحي يجب العمل به بخلاف غيرهم ؛ ولهذا امتثل إبراهيم عليه السلام بذبح ولده ولم يتردد ، وأما الوحي للنمل فهو إلهام غريزي وهذا ما أشار إليه الرسعني في تفسيره آية القصص ، والنحل آية (٦٨) ، انظر : رموز الكنوز ٥١١/٥، ٥٦/٤ .

٣- يرسل رسولاً إلى من اختصّه بالنبوة ، واختاره للرسالة ، وجبريل أمين الوحي ، وهو صاحبه الملازم له»[١].

٣- أول ما نزل من القرآن

أشار الرسعني في مقدمة التفسير ـ المفقودة ـ إلى أول ما نزل وآخره ، ويبدو أنه قد فصّل القول في ذلك حيث ذكر في قوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ﴾ (المدثر:١،٢) ، فقال : «إن هذا من أول ما نزل من القرآن ، وقد ذكرنا الصحيح من ذلك في مقدمة الكتاب»[٢]، وفي قوله تعالى ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾ (العلق:١)، قال :«وقد أسلفنا أنها أول ما نزل من القرآن»[٣]، وبالمقارنة بين العبارتين لا يتضح ميل الرسعني إلى أن ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ﴾ نزلت أولاً ، ثم بعدها نزلت ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴾ ، والصحيح أن ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ﴾ نزلت أولاً ، وقد جاء كل ذلك في الأحاديث الصحيحة والروايات الثابتة عند الصحابة رضي الله عنهم[٤].

---

(١) رموز الكنوز ٩٤/٧ ، ٩٥ بتصرف .

(٢) المصدر السابق ٣٤٨/٨ .

(٣) المصدر السابق ٦٨٠/٨ .

(٤) فعن عائشة رضي الله عنها قالت : كان أول ما بُدئ به رسول الله ﷺ الرؤيا الصالحة في النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حُبِّب إليه الخلاء وكان يخلو بغار حراء ، فيتحنّث فيه (وهو التعبد) الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ، ويتزود لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة فيتزوّد لمثلها ، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء فجاء الملك فقال : اقرأ ، قال : ما أنا بقارئ ، قال : فأخذني فغطّني حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني فقال : اقرأ ، قلت ما أنا بقارئ ، فأخذني فغطّني الثانية حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني فقال : اقرأ ، فقلت : ما أنا بقارئ فأخذني فغطّني الثالثة ، ثم أرسلني فقال : ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴾ (العلق:١-٣) ، فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده ، فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها فقال : زمّلوني ، زمّلوني ...)، أخرجه البخاري في كتاب التفسير ، باب سورة اقرأ برقم : ٤٦٧٠ ، ومسلم في كتاب الإيمان ، باب بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ برقم : ١٦٠ . ==

٤- آخر ما نزل

أحال الرسعني في آخر ما نزل من القرآن إلى مقدمة التفسير ، ولكن على العموم يمكن أن نذكر ما أشار إليه الرسعني في تفسيره من خلال تتبع بعض الآيات ، ففي قوله تعالى ﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ﴾(النساء:١٧٦)،

== أما الحديث الآخر فهو حديث يحيى بن أبي كثير قال : سألت أبا سلمة : أي القرآن أُنزل أوّل ؟ فقال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴾ ، فقالت أُنبئت أنه ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾، فقال أبو سلمة : سألت جابر بن عبد الله : أي القرآن أُنزل أوّل ؟ فقال ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴾ فقال : أُنبئت أنه ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾ ، فقال : لا أخبرك إلا بما قال رسول الله ﷺ ، قال رسول الله ﷺ :(جاورت في حِراء فلما قضيت جواري هبطت ، فاستبطنت الوادي ، فنوديت ، فنظرت أمامي وخلفي وعن يميني وعن شمالي ، فإذا هو جالس على عرش بين السماء والأرض ؛ فأتيت خديجة فقلت : دثروني وصبُّوا عليّ ماءً بارداً ، وأُنزل عليّ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝ قُمْ فَأَنذِرْ ﴾ (المدثر:١،٢) ، أخرجه البخاري في كتاب التفسير ، باب سورة المدثر برقم : ٤٦٤٠ ، ومسلم في كتاب الإيمان ، باب بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ برقم : ١٦١، وهذان قولان غير متعارضين ؛ لأن في حديث جابر في رواية عن النبي ﷺ وهو يحدث عن فترة الوحي : بينما أنا أمشي إذ سمعت صوتاً من السماء ، فرفعت بصري ، فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض ، فرعبت منه ، فرجعت فقلت : زمّلوني ، زمّلوني ، فأنزل الله تعالى ﴿ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴾ (المدثر:٥) ، فحمي الوحي وتتابع ، والحديث ، أخرجه البخاري في كتاب بدء الوحي ، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ برقم : ٤ ، ومسلم في كتاب الإيمان ، باب بدء الوحي برقم : ١٦١ .

وهذا صريح في أن الوحي سبق بالنزول قبل ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴾ ، لكن جابراً لم يعلم ذلك الذي سبق كان ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ﴾ ، ولذلك لم يُنكر قول عائشة رضي الله عنها لما سُئل ، وإنما ذكر ما عنده من العلم عن رسول الله ﷺ ، أما عائشة فكان عندها بخصوص ذلك من العلم ما لم يكن عند جابر رضي الله عنهم ، ومن العلماء من يحمل حديث عائشة رضي الله عنها على نزول الوحي بالنبوة (باقرأ)، وحديث جابر ﷺ على نزوله بالرسالة بـ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴾، فكلاهما أول بالنسبة للنبوة والرسالة ، انظر : المقدمات الأساسية في علوم القرآن لعبد الله الجديع : ٦٨ ، ٦٩ بتصرف .

قال الرسعني : قال البراء : آخر سورة نزلت براءة ، وآخر آية نزلت « يستفتونك »[1].

وقال في سورة التوبة : « ذهب عامة أهل العلم إلى أنها مدنية ، وأنها من أواخر ما نزل من القرآن ، نزلت في سنة تسع »[2].

وفي سورة النصر قال : « وقد ذكرنا في مقدمة الكتاب أنها آخر سورة نزلت جميعاً ثم ذكر حديث ابن عباس ، كما سألهم عمر بن الخطاب ﷺ ن قول الله عز وجل ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴾ (النصر:١) ، قالوا فتح المدائن والقصور؟ قال : ما تقول يا ابن عباس؟ قال : أجل ، أو مَثَل ضُرب لمحمد ﷺ نُعيت له نفسه »[3]، وما لم نعثر عليه في تفسير الرسعني ، لأنه في الجزء المفقود قول ابن عباس رضي الله عنهما : آخر شيء أُنزل من القرآن ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ (البقرة:٢٨١) »[4].

وبين هذه الروايات التي يبدو بعضها متعارضاً كنا نأمل معرفة رأي الرسعني كيف جمع بين هذه الروايات ووجّهها كما كان يفعل من قبل؟ .

وللإجابة عن هذه التساؤلات يمكن الاعتماد على ما نُقل عن أهل العلم ، فيقال : « بأن ما ثبت عن البراء بن عازب ﷺ في آخر آية نزلت ، فهذا محمول على أنها آخر ما نزل من القرآن في أحكام المواريث ، وأما سورة براءة فهذا

---

(١) رموز الكنوز ٦٧٨/١ ، والحديث أخرجه البخاري في كتاب التفسير ، باب ﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ﴾ برقم : ٤٣٢٩، ومسلم في كتاب الفرائض ، باب آخر آية أُنزلت آية الكلالة برقم : ١٦١٨، وفي رواية أخرى قال : آخر سورة أُنزلت سورة التوبة .

(٢) رموز الكنوز ٤٨٦/٢ .

(٣) رموز الكنوز ٧٥٦/٨-٧٥٨ ، والحديث أخرجه البخاري في كتاب التفسير ، باب قوله تعالى ﴿ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴾ : ٤٦٨٥ .

(٤) أخرجه النسائي في التفسير ، باب ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ برقم : ١١٠٥٧ و ١١٠٥٨ ، والطبراني في الكبير ٣٧١/١١ برقم : ١٢٠٤٠ .

يكون آخر ما نزل من القرآن من السور الطوال ؛ لأنها نزلت سنة تسع ، والنبي ﷺ مكث بعدها ما يزيد على عام حتى تُوفي والوحي قد تتابع بعد ذلك حتى وفاته ﷺ[1]، وكذلك قول الرسعني من أواخر ما نزل : «وأما سورة النصر فهي آخر ما نزل جميعاً وهي من القصار»[2]، ولعل في هذا البيان ما يوجّه مثل هذه الروايات الصحيحة .

ثانياً : فضائل الآيات والسور

اهتم الرسعني كثيراً في تفسيره بفضائل الآيات والسور ، وقد بيّن في أثناء تفسيره فضائل السور كاملة ، وأحياناً يهتم ببعض آيات السورة ويبيّن فضلها ، ومعظم الأحاديث يسوقها من سنده سواء كانت في الصحاح أو السنن .

١- اهتمامه بفضائل السور كاملة ، كما في الأمثلة الآتية :

ففي بيان فضل قراءة سورة يس ، قال الرسعني : «عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (مَن قرأ يس في يوم وليلة ابتغاء وجه الله عز وجل غفر الله له)»[3]، ثم ذكر أحاديث أخرى .

---

(١) كما في حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال : (إن الله عز وجل تابع الوحي على رسول الله ﷺ قبل وفاته حتى تُوفي ، وأكثر ما كان الوحي يوم تُوفي رسول الله ﷺ) ، أخرجه البخاري في كتاب فضائل القرآن ، باب كيف نزل الوحي وأول ما نزل برقم : ٤٦٩٧، ومسلم في كتاب التفسير ، باب في تفسير آيات متفرقة برقم : ٣٠١٦ .

(٢) المقدمات الأساسية في علوم القرآن لعبد الله الجديع ٧٠-٧٢ بتصرف .

(٣) رموز الكنوز ٣٠٩/٦ ، وقد ساق الحديث بسنده ولم أذكره للاختصار ، وهكذا بقية الأحاديث لا أذكر سندها للاختصار ، والحديث أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط ٢١/٤ برقم : ٣٥٠٩ ، (تحقيق : طارق عوض ، عبد المحسن إبراهيم ، دار الحرمين ، القاهرة ، ١٤١٥هـ ، ١٩٩٥م)، قال الهيثمي : وفيه أغلب بن تميم وهو ضعيف ، انظر : مجمع الزوائد ٩٧/٧ ، وأخرجه ابن حبان من طريق آخر عن جندب ٣١٢/٦ برقم : ٢٥٧٤ ، وقال الشيخ الأرنؤوط : رجاله ثقات لكن فيه عنعنة الحسن .

وفي فضل قراءة سورة الدخان ، قال الرسعني : «عن أبي هريرة ﷺ ، عن النبي ﷺ قال : (مَن قرأ سورة الدخان في ليلة جمعة أصبح مغفوراً له)» [1].

وكذلك في فضل سورة الإخلاص : قال الرسعني : «الفصل الأول في فضيلتها ، عن أنس بن مالك (أن رجلاً قال : يا رسول الله إني أُحبها ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ (الإخلاص:١) ، قال : حُبك إياها أدخلك الجنة)» [2].

ثم ذكر عدة أحاديث في فضل سورة الإخلاص فيها حديث سهل بن معاذ عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ : (من قرأ قل هو الله أحد حتى ختمها عشر مرات بُني له بها قصر في الجنة) [3] ، وعن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ (احشدوا ، فإني سأقرأ عليكم ثلث القرآن ، قال : فحشد من حشد ، ثم خرج فقرأ ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ . . . ﴾ [4]، ويتضح أن الرسعني يذكر أكثر من حديث في فضائل السورة أحياناً .

---

(١) رموز الكنوز ١٥٨/٧، وقد ذكر الرسعني الحديث بسنده ، والحديث أخرجه الترمذي في كتاب فضائل القرآن ، باب ما جاء في فضل حم الدخان برقم : ٢٨٨٩ ، وقال : حديث غريب ، والحديث فيه هشام بن زياد أبو المقدام ضعيف ، قال عنه الحافظ ابن حجر : متروك ، انظر : تقريب التهذيب : ٥٧٢ ، والطبراني : عن أبي أمامة ﷺ قال رسول الله ﷺ : (من قرأ حم الدخان في ليلة جمعة أو يوم جمعة بنى الله له بيتاً في الجنة) ، معجم الطبراني الكبير ٣١٦/٨ برقم : ٨٠٢٦ .

(٢) رموز الكنوز ٨/ ٧٦٦ ، ٧٦٧ ، ذكر الحديث بسنده ، والحديث أخرجه البخاري في كتاب صفة الصلاة ، باب الجمع بين السورتين في الركعة برقم : ٧٤١ .

(٣) رموز الكنوز ٧٦٨/٨ ، والحديث أخرجه أحمد : ٤٣٧/٣ ، والطبراني في الكبير ١٨٣/٢٠ ، ١٨٤ برقم : ٣٩٧ ، والحديث ضعيف في سنده زبان بن فايد عن سهل ، قال عنه ابن حجر : سهل بن معاذ بن أنس الجهني ، نزيل مصر ، لا بأس به ، إلا روايات زبان عنه ، انظر تقريب التهذيب ٢٥٨ .

(٤) رموز الكنوز ٧٦٩/٨ ، وذكر الحديث بسنده ، والحديث أخرجه مسلم في كتاب صلاة المسافرين ، باب فضل قراءة قل هو الله أحد برقم : ٨١٢ .

٢- فضائل الآيات

اهتم الرسعني واعتنى بفضائل قراءة آيات معينة من سور القرآن الكريم ، وبيان فضلها ، كما في الأمثلة الآتية :

ففي فضل حفظ عشر آيات من أوائل الكهف قال الرسعني : «عن أبي الدرداء رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : (من حفظ عشر آيات من أوائل سورة الكهف عُصِم من فتنة الدجّال)» [(١)].

وفي فضل قراءة آيات من سورة الروم ، قال الرسعني : «عن ابن عباس رضي الله عنهما : عن رسول الله ﷺ قال : (مَن قال حين يصبح سبحان الله حين تمسون وحين تصبحون ، وله الحمد في السموات والأرض عشيًّا وحين تظهرون ، أدرك ما فاته في يومه ، ومن قالها حين يُمسي أدرك ما فاته في ليلته)» [(٢)].

وفي فضل قراءة ثلاث آيات من آخر الحشر ، قال الرسعني : «وعن معقل ابن يسار قال : قال رسول الله ﷺ : (مَن قال حين يصبح ثلاث مرات : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، وقرأ ثلاث آيات من آخر الحشر ، وُكِلَّ به سبعون ألف ملَكاً يصلون عليه حتى يمسي ، وإن مات في ذلك اليوم مات شهيداً ، وإن قالها حين يمسي كان بتلك المنزلة)» [(٣)].

---

(١) رموز الكنوز ٢٣٩/٤، وقد ذكر الحديث بسنده ، والحديث أخرجه مسلم في كتاب صلاة المسافرين ، باب فضل سورة الكهف وآية الكرسي برقم : ٨٠٩ .

(٢) رموز الكنوز ١٦/٦، وقد ذكر الحديث بسنده ، والحديث أخرجه أبو داود في كتاب الأدب ، باب ما يقول إذا أصبح برقم : ٥٠٧٦، والحديث ضعيف في سنده سعيد بن بشير الأنصاري ، قال عنه ابن حجر : مجهول ، وفي سنده أيضاً محمد ابن عبد الرحمن البيلماني ، قال عنه ابن حجر : ضعيف ، واتهمه ابن عدي وابن حبان ، انظر : تقريب التهذيب ٢٣٤ و ٤٩٢ .

(٣) رموز الكنوز ٧٦/٨ ، وذكر الحديث بسنده ، والحديث أخرجه الترمذي في كتاب فضائل القرآن ، باب في فضل قراءة آخر سورة الحشر برقم : ٢٩٢٢، وقال الترمذي : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، والحديث في سنده خالد بن طهمان المعروف بأبي العلاء الخفاف ، قال عنه الحافظ ابن حجر : صدوق رُمي بالتشيع ثم اختلط ، انظر : تقريب التهذيب ١٨٨ .

وبعد هذه الوقفة يمكن أن تلاحظ الأمور الآتية في منهجية الرسعني في هذا الجانب :

أ- لا يكتفي بحديث واحد لبيان فضل السورة أو الآية ، وإنما يورد عدة أحاديث .

ب ـ يذكر الأحاديث في كثير مما سبق بسنده المتصل .

جـ ـ عنايته بفضائل السور والآيات على حد سواء .

د ـ استدلاله على فضل السور وقراءتها ، بما حدّثه الناس من تجاربهم ، ومن ذلك قوله عند ذكره فضل قراءة سورة يس ، « وأنه لم يزل في فَرَج الله » ، قال الرسعني : « وقد حدثني مَنْ جرّبها »[1]

ثالثاً : المكي والمدني

للعلماء في تحديد المكي والمدني ثلاثة ضوابط هي :

أ- ضابط مكاني : أن المكي ما نزل بمكة ولو بعد الهجرة ، والمدني ما نزل بالمدينة .

ب ـ ضابط زماني : أن المكي ما نزل قبل الهجرة ، والمدني ما نزل بعد الهجرة ، سواء نزل بمكة أم بالمدينة .

جـ ـ ضابط الخطاب : أن المكي ما وقع خطاباً لأهل مكة ، والمدني ما وقع خطاباً لأهل المدينة[2] ، ويبدو أن الضابط الزماني هو الأشمل الذي يستوعب معظم ما نزل من القرآن الكريم .

واهتمَّ الرسعني في تفسيره بالكلام عن هذا العلم مع بداية تفسيره لكل سورة فيشير إلى أن هذه السورة مكية أم مدنية ، وما في مكي السور من الآيات المدنية والعكس ، وكذلك ما هو مختلف فيه مكي أم مدني ، كما اعتنى الرسعني في تفسيره في بداية كل سورة باسم السورة وعدد آياتها المكية والمدنية ، وهذا واضح في معظم التفسير ولا حاجة لأمثلة تُعضد ذلك .

---

(١) رموز الكنوز ٣٠٩/٦ .

(٢) البرهان للزركشي ١٨٧/١، والإتقان للسيوطي ٤٩/١ .

ومعرفة المكي والمدني من الأهمية بمكان بالنسبة للعلماء عموماً وللمفسر خصوصاً ؛ إذ من خلال هذا العلم يتعرف على الناسخ والمنسوخ الذي لا تخفى أهميته ، وطريق معرفة المكي والمدني تكون بالرواية عن الصحابة والتابعين رضي الله عنهم[1].

وبعد هذه المقدمة المختصرة فالذي يهمنا هو معرفة منهج الرسعني في تعامله مع المكي والمدني ، وتطبيقه هذه القواعد من خلال النقاط الآتية :

١- يهتم بمعرفة المكي والمدني ويعرض الأقوال دون ترجيح بينها ، وينسب كل قول لقائله ، ويعرف بالناسخ والمنسوخ ويبين المحكم ، كما في المثال الآتي :

ففي قوله تعالى ﴿ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ (الأنعام:١٤١) ، قال الرسعني : « وفي المراد بهذا الحق قولان :

أحدهما : أنه الزكاة ، قاله ابن عباس ، وأنس بن مالك ، وسعيد بن المسيب ، والحسن البصري ، ومحمد ابن الحنفية ، وقتادة ، فعلى هذا القول الآية مدنية وهي محكمة .

الآخر : أنه حق غير الزكاة ، قال مجاهد : إذا حصدت فحضر المساكين فأطرح لهم منه . . . ، وقال الربيع : هو لقاط السنبل ، فعلى هذا قوله ﴿ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ ﴾ أمر استحباب ، وقال سعيد بن جبير : كان هذا قبل الزكاة ، فلما فُرضت الزكاة نسخ هذا ، وقال سفيان : سألت السُّدي عن هذه الآية فقال : نسخها العشر ونصف العشر ، قلت عن مَن؟ قال : عن العلماء ، وقال ابن عباس ﷺ : نسخت الزكاة كل نفقة في القرآن ، فعلى هذا يكون قوله ﴿ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ﴾ أمر إيجاب ، ويكون منسوخاً كما ذكروا ، هذا حاصل ما ذكره المتقدمون من العلماء ، وذهب أكثر متأخري العلماء إلى أن المراد بالحق : الزكاة »[2].

---

(١) البرهان للزركشي ١/١٩١، ١٩٢ .

(٢) رموز الكنوز ٢/٢٦ - ٢٩ بتصرف .

وكان الأولى بالرسعني أن يحسم لنا الراجح من هذه الأقوال فلا يكفي عرضها وتوجيهها ، ويدع القارئ في حيرة من أمره ، وإن كنت ألحظ ميله للقول الأول من خلال تقديمه وتعضيده بقرينة أخرى وهي قوله : « وذهب أكثر متأخري العلماء إلى أن المراد بالحق : الزكاة » .

٢- يعتمد الرسعني على المكي والمدني كأداة من أدوات الترجيح في تفسيره الآية القرآنية ، كما في المثال الآتي :

ففي قوله تعالى ﴿ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴾ (القلم:١٦) ، قال الرسعني : « ومن الأقوال التي تُحكى للقدح فيها لا للأخذ بها ، قول النضر بن شميل[١] المعنى سنحدّه على شرب الخمر ، والخرطوم : الخمر والجمع خراطيم ، قال الشاعر :

تظل يومك في لهو وفي لعب وأنت بالليل شراب الخراطيم[٢]

وهذا تعسُّف في التأويل ؛ لأن الله ذمّه بأوصاف أيسرها مُوبق ، أفتراه يعدل عن التهديد والوعيد على هذه العظائم الموبقة إلى الوعيد على شرب الخمر ، وهو كافر مُكذب ؟ وكيف يكون ذلك وشرب الخمر لم يكن حين نزول هذه الآية محرّماً بإجماع أهل العلم ؛ لأن تحريمه كان بالمدينة ، وهذه السورة مكية »[٣].

٣- يبيّن الرسعني ما يترتب على الآية من معنى إن كانت مكية ، أو مدنية ، كما في المثال الآتي :

---

(١) هو : النضر بن شميل بن خرشة بن يزيد ، أبو الحسن المازني التميمي البصري ، ولد بمرو من مناطق خراسان عام ١٢٢هـ ، عالم بالعربية والحديث ، وله مصنّفات منها : غريب الحديث ، والمعاني ، تولى القضاء في مرو ، توفي سنة ٢٠٣هـ . انظر : سير أعلام النبلاء للذهبي ٣٢٨/٩ .

(٢) البيت للأعرج وهو من البحر البسيط ، وذكره القرطبي والثعلبي . انظر : الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٢٣٨/١٨ ، والكشف والبيان للثعلبي ٢٥٥/٦ .

(٣) رموز الكنوز ٢٢٩/٨ بتصرف

ففي قوله تعالى ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ﴾ (الأحقاف:١١) ، قال الرسعني : «اختلفوا في هذه الآية هل مكية أم مدنية؟ فإن قلنا مكية : فالمعنى ، وقال : كفار قريش للضعفاء الذين بادروا إلى الإيمان ، كصهيب ، وبلال ، وعمار بن ياسر ، وخباب بن الأرت ، تعظماً عليهم واستكباراً : لو كان ما بادروا إليه خيراً ما سبقونا إليه ، وإن قلنا : هي مدنية ، فالمعنى : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ يعني : أسد وغطفان ، ﴿ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ يعني جهينة ومزينة ، لو كان ما جاء به محمد خيراً ما سبقنا إليه رعاء البهمة ورُذال الناس»[1].

٤- يردّ الرسعني أقوال بعض التابعين ولا يرضاها في كون هذه السور مكية أو مدنية ، ويجعل حجته في ردِّ أقوالهم ضابط الخطاب في تحديد المكي والمدني ، كما في سورة محمد ﷺ ، قال الرسعني : «هي مدنية في قول ابن عباس وأكثر المفسرين ، وقال الضحاك والسُّدي : هي مكية ، وليس بشيء ؛ لأنك إذا تصفحت آياتها وجدتها مفسدة لهذا القول شاهدة ببطلانه ، وغير ممتنع أن تشتمل على آيات مكية ، لكن إطلاق القول بنزولها كلها بمكة خطأ»[2].

٥- إيراده في الآية أكثر من سبب لنزولها ، ومنه ما هو مدني ومنه ما هو مكي دون الترجيح أو الجمع بينهما ، مع إمكانية تعدد سبب النزول كما سبق ، وإن كان يعذر بإيراد سبب النزول بصيغة التمريض «رُوي أو قِيل» ، كما في الأمثلة الآتية :

ففي قوله تعالى ﴿ كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴾ (الرعد:٣٠) يقول الرسعني : «وقد رُوي عن

---

(١) رموز الكنوز ٢١١/٧ .

(٢) المصادر السابق ٧/ ٢٤٤، ٢٤٥ بتصرف .

ابن عباس رضي الله عنهما قال : نزلت في كفار قريش حين قال لهم النبي ﷺ : اسجدوا للرحمن ، قالوا وما الرحمن فنزلت ﴿ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّي ﴾ ، وقال قتادة ومقاتل : لما أرادوا كتاب الصلح يوم الحديبية كتب علي عليه السلام : بسم الله الرحمن الرحيم ، فقال سهيل بن عمرو : ما نعرف الرحمن إلا مسيلمة فنزلت هذه الآية ، وقيل : كان رسول الله ﷺ يوماً في الحِجْر يدعو ، وأبو جهل يسمع ، وهو يقول يا الله يا رحمن ، فولّى مدبراً إلى المشركين ، فقال : إن محمداً كان ينهانا عن عبادة الآلهة وهو يدعو إلهين ، فنزلت هذه الآية »[1].

رابعاً : النسخ في القرآن[2]

إن معرفة الناسخ والمنسوخ من الأهمية بمكان ، وخاصة مَن يتصدى لتفسير القرآن الكريم ، فذكر العلماء « أنه لا يجوز لأحد أن يفسر كتاب الله تعالى إلا بعد أن يعرف الناسخ والمنسوخ »[3]، ويروون في هذا أن الإمام علي ﷺ قال لقاضٍ : (أتعرف الناسخ من المنسوخ؟ قال : لا ، قال : هلكت وأهلكت)[4].

وإن التفصيل في هذه المسألة محله كتب علوم القرآن وأصول الفقه ، فضلاً عن الكتب المفردة لهذا العلم[5].

---

(١) رموز والكنوز ٣/ ٤٨٥ ، ٤٨٦ ، ومن قول قتادة ومقاتل : تكون الآية مدنية على ضابط الزمن ، وهو كل ما نزل قبل الهجرة مكي وإن كان خارج مكة ، وما نزل بعد الهجرة مدني وإن كان خارج المدينة .

(٢) ترد كلمة النسخ بمعان متعددة منها ، الإزالة والتبديل ، والتحويل والنقل ، انظر : الإتقان للسيوطي ٥٣/٢ .

(٣) البرهان للزركشي ٢٩/٢ ، والإتقان للسيوطي ٥٣/٢ .

(٤) أخرجه البيهقي في الكبرى في كتاب آداب القاضي ، باب إثم من أفتى أو قضى بالجهل ١١٧/١٠ ، والطبراني في الكبير ٣١٦/١٠ ونسب القول لابن عباس ، وابن أبي شيبة في المصنّف في كتاب الأدب ٥٥٨/٨ برقم : ٦٢٤٣ ، وعبد الرزاق في المصنّف ٢٢٠/٣ ، ٢٢١ ، برقم : ٥٤٠٧ .

(٥) مثل الناسخ والمنسوخ لأبي جعفر النحاس ، ولأبي عبيد القاسم بن سلاّم وغيرهم ، وحديثاً مثل كتاب النسخ في القرآن الكريم للدكتور مصطفى زيد ، والنسخ بين الإثبات والنفي للدكتور محمد فرغلي وغيرهم .

ومن الجدير ببيانه في علم الناسخ والمنسوخ معرفة القواعد والأسس التي يقوم عليها ، منها أن طريقة معرفة الناسخ والمنسوخ يرجع فيها إلى النقل والرواية ، وليس للاجتهاد والنظر ، كما لا يخفى على الباحثين أن النسخ لا يقع إلا في الأمر والنهي ، بمعنى أن الخبر لا يدخله النسخ إلا إذا تضمن معناهما[1] كآيات الوعد والوعيد ، والأخبار فلا يدخل عليها النسخ .

ولعل من المناسب هنا أيضاً التنبيه إلى مفهوم النسخ عند السلف ، فإنه كان يُطلق على كل تغيير يطرأ على بعض الأحكام فيرفعها ليحلَّ غيرها محلها ، أو يخصص عمومها أو يقيد إطلاقها[2]، وحاصل القول أن النسخ يمكن تقسيمه على قسمين ، الأول نسخ كلي ، والثاني نسخ جزئي كتخصيص العام وتقييد المطلق وتبيين المجمل وتفسيره . . . إلخ[3].

ومن هنا نرى أن هناك من بالغ في عدد الآيات المنسوخة ، فأقحم الآيات التي من قبيل التخصيص أو التقييد في دائرة النسخ ، بينما نجد أن فريقاً آخر لا يكثر من دعوى الآيات المنسوخة فتجد أن الآيات المنسوخة لا تتجاوز عشرين آية[4]، وهذا هو الصحيح ؛ لأن ما ذُكر في بيان النسخ كثير منه يمكن أن يُحمل على إبقاء العمل بالنصين[5] كل منهما في وقته المناسب له ، ويجعل

---

(١) البرهان للزركشي ٣٣/٢ ، والإتقان للسيوطي ٥٤/٢ .

(٢) النسخ في القرآن الكريم ، دكتور مصطفى زيد ٧٣/١ (دار الفكر ، بيروت ، ط٢، ١٣٩١هـ ، ١٩٧١م) .

(٣) المقدمات الأساسية في علوم القرآن لعبد الله الجديع ١٩٦-١٩٨ بتصرف .

(٤) منهم الإمام السيوطي حيث قال : قد أكثر الناس في المنسوخ من عدد . . . وأدخلوا فيه آياً ليس تنحصر ، وهاك تحرير آيٍ لا مزيد ... عشرين حرَّرها الحذّاق والكُبّر . انظر الإتقان ٦٠/٢ ، ٦١ .

(٥) يمكن أن يُستأنس لهذا المعنى بقاعدة إعمال الكلام أولى من إهماله ، أو حمل الكلام على التأسيس أولى من التأكيد ، انظر : المدخل لدراسة الشريعة الإسلامية للدكتور عبد الكريم زيدان ٧٩ (مؤسسة الرسالة ، ط١٦ ، ١٤٢٤هـ ، ٢٠٠٣م) ،

ترك العمل المؤقت بأحدهما مما يندرج تحت قوله تعالى ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ﴾ (البقرة:١٠٦) ، كالآيات الآمرة بالعفو والصفح والإعراض عن المشركين مع الآيات الآمرة بقتلهم ، بمعنى أن كل أمر ورد يجب امتثاله في وقت ما لعلة توجب ذلك الحكم ، ثم ينتقل بانتقال تلك العلة إلى حكم آخر ، وليس نسخ ، وإنما النسخ الإزالة حتى لا يجوز امتثاله أبداً[١].

لقد استقر مفهوم النسخ عند الفقهاء والأصوليين : وأصبح يُعرّف عندهم بأنه «رفع الحكم الشرعي بدليل متأخر»[٢]، أما إنكار وجود النسخ أصلاً فهذه مكابرة ودعوى مردودة ومخالفة لنص الآيات القرآنية الدالة على وجود النسخ في القرآن الكريم ، ومنها قوله تعالى ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ﴾ (البقرة:١٠٦) وغيرها من الآيات .

وبعد هذه اللمحة المختصرة عن النسخ أودُّ أن نقف عند منهج الرسعني وكيف تعامل مع الآيات المنسوخة في توجيهها ، أو ترجيح بعضها ، فضلاً عن معرفة وجهته في الإقلال أو الإكثار من القول بالآيات المنسوخة ، وهذا ما سنعرفه من خلال النقاط التالية :

١- اهتمّ الرسعني بموضوع النسخ ويظهر هذا الاهتمام في تفسيره آيات من القرآن وتعقيبه عليها ، ويعلل سبب النسخ بمصالح الناس فيقول : في قوله تعالى ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (النحل:١٠١) ، «من الناسخ والمنسوخ على حسب مصالح الناس على اختلاف الأوقات ، فإنه قد يكون ما هو مصلحة اليوم مفسدة غداً ، وبالعكس»[٣].

---

(١) البرهان للزركشي ٤٢/٢، المقدمات الأساسية لعبد الله الجديع ٢٠٠ بتصرف .

(٢) انظر : البحر المحيط ، بدر الدين محمد بن بهادر الزركشي ٦٩/٤ (تقديم : عبد القادر العاني ، وزارة الأوقاف ، الكويت ، ط٢ ، ١٤١٣هـ ، ١٩٩٢م) ، أصول الفقه للشيخ محمد الخضري ٢٤٧ (دار الحديث ، القاهرة ، ١٤٢٤هـ ، ٢٠٠٣م).

(٣) رموز الكنوز ٩٢/٤ .

٢- من خلال تتبع رأي الرسعني في النسخ تبيّن لي أنه ممن يقولون بوجود النسخ في القرآن الكريم بقلة ، إذ كثيراً ما يردّ دعاوى النسخ في الآيات كما سيأتي .

٣- رجّح الرسعني قاعدة «أن الأخبار لا تُنسخ» ؛ لأن النسخ يتعلق في الأمر والنهي وهذا هو الصحيح ، ففي قوله تعالى ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴾ (هود:١٥)، قال الرسعني : «وزعم مقاتل أن قوله ﴿ نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا ﴾ نُسخ بقوله ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ﴾ (الإسراء:١٨)، وهذا ليس بصحيح ؛ لأن الأخبار لا تُنسخ»[١].

٤- يميل الرسعني إلى أن الناسخ لابد أن يكون بقوة المنسوخ ويماثله ، فلا ينسخ خبر الآحاد القرآن الثابت بالتواتر ، ففي قوله تعالى ﴿ قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً ﴾ (الأنعام:١٤٥) ، قال الرسعني : «وذهب قوم من المفسرين إلى أن هذه الآية منسوخة بآية المائدة[٢] المشتملة على تحريم المنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع ، وبالأحاديث التي وردت في تحريم الحُمُر الأهلية وكل ذي ناب من السِّباع . . . ، وهو مذهب بعيد من التحقيق والصواب ؛ لأن المنخنقة وما بعدها من جملة الميتة ، وأخبار الآحاد لا تنسخ القرآن . . . »[٣].

---

(١) رموز الكنوز ١٣٢/٣ .

(٢) هو قوله تعالى ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ﴾ (المائدة:٣).

(٣) رموز الكنوز ٣٦/٢ ، وقال في موضع آخر مثل هذا الكلام ، انظر ٤٥٢/١.

٥- ردَّ الرسعني كثيراً من دعاوى النسخ ولم يقبل بها ، كما في الأمثلة الآتية :

ففي قوله تعالى ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴾ (النساء:٦٣) ، يقول الرسعني : «ذهب جماعة من المفسرين إلى أن الأمر بالإعراض منسوخ بآية السيف[١]، وهذا ليس بصحيح ؛ لأن آية السيف اقتضت إباحة دم المشركين ، وحضّت على قتلهم ، والمنافق معصوم الدم ؛ لإظهار كلمة الحق»[٢].

وفي قوله تعالى ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾ (الإنسان:٨) ، قال الرسعني : «وزعم بعض المفسرين أن إطعام الأسير منسوخ بآية السيف ، وليس قوله بشيء»[٣].

٦- ينقل الرسعني دعاوى النسخ بآية السيف ، وهو ما يتعلق بالصفح والإعراض عن المشركين دون أن يُعقِّب عليها بشيء أو يرجّح أحدها ، كما في المثالين الآتيين :

ففي قوله تعالى ﴿ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ (آل عمران:١٨٦) ، قال الرسعني : «اختلف العلماء في الأمر بالصبر ، فذهب أكثرهم إلى أنه محكم ، وذهب بعضهم إلى أنه منسوخ بآية السيف»[٤]، وكان الأولى بالرسعني أن يدلي بدلوه كما فعل في مواضع سابقة ، وألا يُحجم عن إبداء رأيه في مثل هذه المواضع .

---

(١) هو قوله تعالى ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ ﴾ (التوبة:٥) .

(٢) رموز الكنوز ٥٤٨/١ ، وانظر كذلك ١٤٣/١ ، عند تفسير سورة آل عمران الآية (٢٠) .

(٣) رموز الكنوز ٤٠٩/٨ .

(٤) المصدر السابق ٣٨٧/١ ، وانظر كذلك ٥٨٦/١ ، ٤٦٣/٢ ، ٤٦٤ ، ٦٤/٧ .

وفي قوله تعالى ﴿ فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ ﴾ (الحجر:٨٥) ، قال الرسعني : «﴿ فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ ﴾ ، وهو الإعراض الخالي عن الهلع والجزع ، وقد قيل : إنه منسوخ بآية السيف»[١]، ويمكن أن يُعتذر له بأنه ذكر النسخ بصفة التمريض (قيل) .

٧- يرجّح أحياناً الأقوال المتعلقة بالنسخ بعد عرضها ، ويوّجه المعنى المترتب عليها ، كما في قوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ مِنكُمۡ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ ﴾ (النور:٥٨)، قال الرسعني : «ذهب أكثر العلماء إلى القول بإحكام هذه الآية ، قيل للشعبي : أمنسوخة هي؟ قال : لا والله ما نُسخت؟ قلت : إن الناس لا يعملون بها ، فقال : الله المستعان ، وقال سعيد بن جبير : والله ما نُسخت ، ولكنها مما يتهاون به الناس ، ورُوي عن سعيد بن المسيب : أنها منسوخة بالآية التي بعدها ، وهي قوله تعالى ﴿ وَإِذَا بَلَغَ ٱلۡأَطۡفَٰلُ مِنكُمُ ٱلۡحُلُمَ فَلۡيَسۡتَـٔۡذِنُواْ كَمَا ٱسۡتَـٔۡذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ ﴾ (النور:٥٩) ، قال الرسعني : والأول أصح ؛ لأن معنى الآية ﴿ وَإِذَا بَلَغَ ٱلۡأَطۡفَٰلُ مِنكُمُ ٱلۡحُلُمَ ﴾ ، أي من الأحرار ﴿ فَلۡيَسۡتَـٔۡذِنُواْ ﴾ ، أي في جميع الأوقات ﴿ كَمَا ٱسۡتَـٔۡذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ ﴾ ، يعني الرجال الكبار الأحرار الذين من قبلهم في الوجود أو في بلوغ الحلم . . . »[٢].

---

(١) رموز الكنوز ٦٢٧/٣، من لطائف هذه الآية وغيرها من الآيات قيل : الصفح الجميل : هو الذي لا عتاب معه ، والصبر الجميل : هو الذي لا شكوى فيه ولا معه ، والهجر الجميل : هو الذي لا أذى معه ، انظر : مدارج السالكين لابن قيم الجوزية ١٢٢/٢(دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ط١ ، ١٤١٩هـ ، ١٩٩٩م) .

(٢) رموز الكنوز ٢٨٤/٥ ، ٢٨٥ .

٨- سعى الرسعني إلى ردِّ القول بالنسخ عند إمكانية العمل بالآيتين ، وهذا الذي ذهب إليه هو الصواب إن أمكن ذلك ؛ لأن إعمال النص أولى من إهماله ، كما في المثالين الآتيين :

ففي قوله تعالى ﴿ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ۖ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (يونس:٤١) ، يقول الرسعني : « قال ابن عباس وجمهور سلف المفسرين : نسختها آية السيف ، والصحيح أنها محكمة ؛ لإمكان العمل بالآيتين »[١].

وفي قوله تعالى ﴿ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴾ (التكوير:٢٨)، قال الرسعني : « ذهب جماعة من نقلة التفسير إلى أن قوله ﴿ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴾ ، وقوله ﴿ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴾ (عبس:١٢)، وقوله تعالى ﴿ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴾ (الإنسان:٢٩) ، منسوخ بقوله ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (التكوير:٢٩) ، وهذا ليس بصحيح ؛ لأنه لا تنافي بين ما ادّعوه ناسخاً ومنسوخاً ، وإنما هو إعلام أن مشيئتهم منوطة بمشيئته سبحانه وتعالى ، والأمر كذلك »[٢].

٩- تصريح الرسعني بالنسخ الجزئي في القرآن الكريم ، والذي هو من قبيل تخصيص العام ، أو تقييد المطلق ـ كما سبق ـ وهو المعروف عن الفقهاء ، ويمكن أن يقال إن الرسعني ينص على التفريق بين التخصيص والتقييد والنسخ ، ففي قوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ﴾ (النساء:٢٩)، يقول الرسعني : « أخرج أبو داود في سننه بإسناده ، عن ابن عباس قال :

---

(١) رموز الكنوز ٣/٥٢ ، ٥٣ .
(٢) المصدر السابق ٨/٥١٥ ، ٥١٦ .

كان الرجل يتحرّج أن يأكل عند أحد من الناس بعدما نزلت هذه الآية ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ ﴾ ، فنُسخ ذلك بالآية الأخرى التي في النور[1]، وهذا عند الفقهاء ليس من باب الناسخ والمنسوخ كما قررناه فيما مضى»[2].

إن ما قرّره الرسعني فيما مضى هو من المفقود الذي كان الباحث بأمسّ الحاجة إليه للوقوف على قواعده التي قررها في هذا الموضوع وغيرها من المواضيع ، وما ذهب إليه في هذه المسألة من القول بقول الفقهاء والمراد به النسخ الجزئي كتقييد المطلق أو تخصيص العام هو الصواب ، والله أعلم .

* * *

(١) وهي قوله تعالى ﴿ لَّيۡسَ عَلَى ٱلۡأَعۡمَىٰ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡأَعۡرَجِ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرِيضِ حَرَجٞ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَن تَأۡكُلُواْ مِنۢ بُيُوتِكُمۡ ﴾ (النور: ٦١).

(٢) رموز الكنوز ٤٨٣/١ ، ٤٨٤ ، والحديث أخرجه أبو داود في كتاب الأطعمة ، باب نسخ الضيف يأكل من مال غيره برقم : ٣٧٥٣ ، والبيهقي في السنن الكبرى في كتاب الصداق ، باب نسخ الضيف ، ٢٧٤/٧ ، ٢٧٥ ، والحديث في سنده علي بن الحسين ابن واقد ، ضعفه أبو حاتم والبخاري ، وقال عنه ابن حجر : صدوق يهم ، انظر : تهذيب الكمال للمزي ٤٠٦/٢٠ ، وتقريب التهذيب ٤٠٠ .